مطبوعات الجمعية التاريخية

لخريجى كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

صور من التاريخ الإسلامي

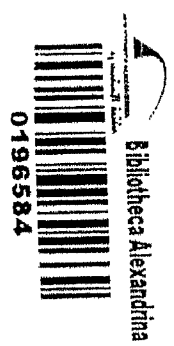
العصر العربي

تأليف

عبد الحميد بك العبادي

عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

أستاذ التاريخ الإسلامي



مكتبة الآداب للطباعة والنشر ٢٢ شارع محرم بك

الاسكندرية ١٩٤٨



الجمعية التاريخية

لخريجي كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

صور من التاريخ الإسلامي

العصر العربي

تأليف

عبد الحميد بك العبادي

عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

أستاذ التاريخ الإسلامي

مكتبة الآداب للطباعة والنشر ٢٢ شارع محرم بك

الاسكندرية ١٩٤٨



الإهداء

إلى إخوانى وتلاميذى من خريجى مدرسة القضاء الشرعى ، ودار العلوم ، وكليتى الآداب بجامعة فؤاد الأول وفاروق الأول ، والأزهر الشريف ، ودار المعلمين العالية ببغداد ، أهدى الكلمات التى يشتمل عليها هذا الكتاب ؛ فهى ثمرة دروس وبحوث ألقيتها عليهم ، وكان حسن قبولهم لها ، وانتفاعهم بها أكبر باعث لى على أن أستخلص منها هذه الكلمات التى نشرتها من قبل مفرقة فى الصحف والمجلات ، والتى أعيد نشرها اليوم فى كتاب ؟

عبد الحميد العبادى

رمل الاسكندرية فى { ٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٧
٢٠ يناير سنة ١٩٤٨ }

كلمة الجمعية التاريخية

لخريجي كلية الآداب بجامعة فاروق الأول

هذا هو الكتاب الثاني من الكتب التي تصدرها جمعيتنا التاريخية[1] ; وهو كتاب نعتز به كل الاعتزاز ، لا لأنه كتاب رئيس الجمعية ، بل لأنه كتاب علم من « المثاني » بين كتب التاريخ . وقد يحق لكثير من الجمعيات أن تتسابق في الانفراد بتقديمه إلى الشعوب العربية المختلفة التي عرفت المؤلف الجليل من مقالاته ومحاضراته فقدرت ذوقه التاريخي تقديرا لم يبلغه فيما نرى أحد من مؤرخي الإسلام في الشرق الحديث .

ولأستاذنا عبد الحميد العبادي بك فضل كبير على التاريخ الإسلامي تعرفه حق المعرفة أجيال تخرجت على يديه منذ ثلاثين عاما أو تزيد . فقد استمعت لدروسه القيمة أجيال من الشباب كثيرة ، فظلت تحتفظ بأجمل الذكرى لما سمعت ، وظلت على الأخص تحتفظ بصورة الماضي الإسلامي التي رسمها لهم ونقشها في أذهانهم رسما بسيطا ونقشا حيا ، حتى لم يجدوا عناء في حملها كأنما صاغوها من نفوسهم . بل قد لا نجاوز الحق في شيء إن زعمنا أن جيل المؤرخين الحاضر إنما يردد بعض صور الأستاذ أو يتخذها أساسا لدراسته الإسلامية . ولقد سمعت دروسه تلميذا ثم سمعت شيئا منها زميلا ، فخيل إلى أنني كنت أشد إعجابا بها وأعظم طربا لها حين أصبحت زميلا مني حين كنت تلميذا . ولكن هذه الدروس جانب مجهول مجيد لم يذعه الأستاذ الجليل على الناس بعد .

نعم ، فضل الأستاذ الجليل على التاريخ الاسلامي كبير الأثر ، لأنه نقله من

---

(١) الكتاب الاول ، الجيل في تاريخ لوبيا ، تأليف مصطفى بعيو الطرابلسي ، ١٩٤٧ .

عهده الأول إلى عهد جديد : كان التاريخ الإسلامى لايزال فى آخر القرن الماضى وأول القرن الحاضر من العلوم النقلية الصرفة . فكان المؤرخون فى الغرب الاوربى والشرق العربى أيضا يقتصرون على تمحيص الروايات التاريخية المختلفة بقدر ما تتيح لهم طرائقهم الرفيقة فى التمحيص ، ثم يسوقونها فى سرد متسق لا يحتاجون فيه إلا إلى اليسير من الربط . هكذا كان كوسان دى برسفال ودفرميرى وغيرهما فى فرنسا وموير فى انجلترا وفايل فى ألمانيا ، وهكذا أيضا كان ما كتب الشرقيون أنفسهم ، فنهم من كان يعمد إلى المصادر فيلخصها تلخيصا يتفاوت فى إيجازه قصرا وطولا ؛ مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى . ومنهم محمد الخضرى بك ، بل لعل الخضرى كان يغالى فى الطريقة القديمة حتى ليحتفظ لرواياته بلفظها القديم . وكتابه هذا يعد من أصلح الكتب فى نوعه إذا اعتبرناه كتاب نصوص ، ولانزال إلى اليوم ننصح المبتدئين فى التاريخ بقراءته ليتعودوا أساليب المصادر . حتى أنشئت الجامعة المصرية القديمة فأنشأت جيلا جديدا كان خير شاهد بفضلها . من هذا الجيل أساتذتنا أصحاب المنهج العلمى الحديث : طه حسين بك فى الأدب ، وأحمد أمين بك فى الحياة العقلية ، وعبد الحميد العبادى بك فى التاريخ .

فهجر التاريخ الإسلامى طريقه القديم الذى سلكه قرونا طويلة ، وساير باقى فروع التاريخ الأخرى فى أوربا . وتجاوز الدور البسيط الذى مرت به كل الشعوب تقريبا ؛ ثم لم يقتنع بالتقدم البراق الذى عرض له فى القرن التاسع عشر على يدى جيبون وفولتير من قبل ، لأن هذا التقدم لم يكد يغير إلا مظهره بما أدخل عليه من تنظيم الواقعات وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض وترتيبها فى أسلوب جميل يختلف حظه من الإمتاع . وإنك لتقرأ المختارات من كتب التاريخ التى ظهرت فى فرنسا على هذا الأسلوب فتجدها قطعا رائعة من الأدب الخطابى

دروس من الصحراء

لقد أسعدنى الحظ فسافرت فى الصحارى وسلكت طرقها ومسالكها غير مرة .

تجولت فى صحراء مصر الغربية وتنقلت بين واحاتها العتيقة المتقادمة. وضربت فى صحراء مصر الشرقية مرتاداً شعابها وأوديتها وشم جبالها . وسلكت من جزيرة العرب ما بين جدة ومكة ، وما بين مكة والمدينة ، كما جزت بادية الشام وعبرت البرية المترامية الواقعة بين الشام والعراق . وأشهد لقد علمتنى هذه الأسفار من أمر الصحراء ما لم أكن أعلم ، ووقفتنى من أسرارها ومكنون أمرها على ما لم أكن لأبلغه بالدرس والقراءة ، مهما جهدت .

* * *

لقد كنا عند اعتزام السفر فى الصحراء نأخذ أهبتنا للأمر أشد الأخذ ، ونستعد له أتم الاستعداد ، تفاديا مما عسى أن يفجأنا فى سفرنا من نفاد الزاد أو الماء أو العتاد ، وكنا فى ذلك إنما نعول على أنفسنا موقنين بأن التفريط والتهاون قد يكون وخيم العاقبة ، وقد يفضى بنا إلى الهلاك المحقق وليس من شك فى أن التعويل على النفس والاحتياط للمستقبل أول سمات الرجولة الصحيحة وملاك أمرها ، وهذا أول درس تلقيه الصحراء على من يغامر بنفسه فى مجاهلها .

* * *

ولكننا على الرغم من استعدادنا ومبالغتنا فى التوقى والاعتماد على

---

(١) الثقافة العدد ٤١٣ (٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦)

النفس كنا لا نبرح يخالجنا شعور قوى خفى بأننا على شفا أمر مخوف ، وغيب مجهول ، وأننا ضاربون فى عماية لا نأمن بغتاتها وفجاآتها ، فمن يدرى ! فلعلنا لخلل فى تقديرنا وأمر لم يدخل فى حسابنا ، نمسى وقد انطوت علينا الصحراء انطواء اليم الخضم على من انخرقت به سفينته ، فإذا أجسادنا جزر سباعها وعقبانها ومدب حشراتها وهوامها .

من أجل ذلك كنا لاندع التوكل على الله والاعتماد عليه بعد الاعتماد على أنفسنا ، مسندين إليه سبحانه حولنا وقوتنا . ولا شك أن الإيمان بالله على هذا النحو هو الإيمان الصحيح،وأن التوكل على الله على هذه الحالة هو التوكل المحمود ، وهذا درس آخر بليغ يستفيده المسافر فى الصحراء .

* * *

ثم إن للصحراء روعة أى روعة ، وجمالا أى جمال . وحذار أن تخدعك عن روعتها وجمالها رمالها الوعثاء ، وجبالها الجرداء ، وحرها اللافح ، وبردها القارس ،فما تلك لعمرك إلا بمنزلة أطمار على أقمار ، وأسمال على حسناء معطال .

ورويدك حتى يقبل الربيع ، ويرق الهواء ، وتضع الأرض حملها ، فترى عجبا من العجب ، فى الزهر المفوف ، والعشب المخضر ، والطيور الصادحة والظباء السارحة ، والإبل الراعية ، والشاء الثاغية ، والقوم يتصايحون جذلا وحبورا .

ورويدك حتى يقبل المساء ، ويطلع القمر ، وتتلألأ النجوم والكواكب ، ويخيم على الصحراء سكون يكاد لرهبته يحسه سمعك المرهف ،فترى ضآلة غير متناهية إزاء عظمة غير متناهية. فإذا غاب القمر ومد الظلام على البيداء رواقه ، وطرق سمعك عصف الرياح وهى تنسلك بين الجبال أو تهوى فى المهاوى السحيقة ،

وتراءت لعينيك أشباح غريبة وصور عجيبة ، وخيل إليك أنك تسمع عزيف الجن وصراخ السعالى ، وأنك تراها وتحسها ، وأنها تراوغك تارة عن يمينك وأخرى عن شمالك ، فلا ترع ، فجن الصحراء وسعاليها ليس الخبث والغدر من طبعها ، وقد عرفها قـــدماء العرب وعرفتهم ، وكان لهم معها ولها معهم شئون وشئون، فتارة كانوا يصارعونها فيصرعونهـا أو تصرعهم، وتارة كانوا يحبونها وتحبهم ، ويصهرون إليها فتلد لهم البنين والبنات ، وطورا كانوا يصادقونها ويحالفونها فتفي لهم ويفون لها ، وطورا كان يستلهمها شعراؤهم فتلهمهم عيون الشعر وروائع القوافي. فهل تدرى ماذا توحى الصحراء بكل ذلك ؟ إنها توحى معنى الفن الرفيع والعبقرية والجمال.

الصحراء تبعث في نفوس أهلها وعشاقها الرجولة الكاملة ، والإيمان الصادق، والعبقرية التامة . فان شئت على ذلك دليلا فعليك بأبطال العرب في الجاهلية والإسلام، فان أبيت إلا الطريق السهل، والقول الفصل ، والحجة البالغة، المعجزة الدامغة: فعليك بسيرة نبي الهجرة عليه السلام ؟



« مصر القديمة » وآثارها [1]

مصر القديمة حى من أحياء العاصمة ، له من انفراده جنوبيها ، ومن صبغته الوطنية الخالصة ، ما يجعله أشبه شيء بمدينة قائمة بنفسها . وهو عريق فى المصرية، ترى فيه المسلم إلى جانب القبطى فى المسكن والمتجر والمصنع ، وتعرف فيه الأثر التاريخى الإسلامى قريبا من الأثر التاريخى القبطى . ثم لا تجد فيه سلطان الأجانب الاقتصادى واضحا ولا عنصرهم ماثلا مثوله فى أحياء العاصمة الأخرى. والحى هادىء ساكن ، قد خلع عليه القدم ثوبا ضافيا من وحشة مقرونة بجلال . والسكان قارون وادعون لا يكاد يهيجهم حزن أو يستخفهم فرح ، كأنهم لطول ما تتابع على حيهم من غير الدهر وصروفه قد رسخت أحلامهم وصاروا إلى شيء من الاطمئنان الفلسفى غير قليل .

« ومصر القديمة » على ضيق رقعتها وتقارب أرجائها ليست بقليلة الآثار . وآثارها برغم ما أصابها من البلى والعفاء لاتزال ماثلات شواهد بكثير من حوادث التاريخ العظام . فإذا بكرت مرة أيها القارىء إلى مصر القديمة ، ووقفت فى هدأة الصبح وحين ادكار القلب ونشاط الذاكرة حيال « حصن بابليون » أو وسط « الجامع العتيق » أو بين خرائب « الفسطاط » فقد تؤدى إليك الذاكرة أنباء كثيرة من عبر التاريخ المصرى .

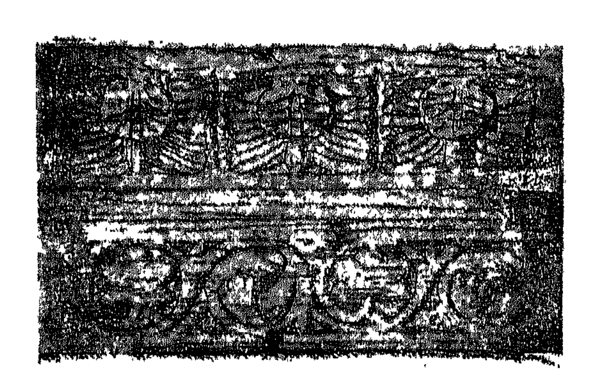
فهذا الحصن الذى تستنقذه الآن مصلحة الآثار من أيدى البلى يذكرك

---

(١) السفور ، العدد ١٨٢ ، ١٢ ديسمبر ١٩١٨ .

بقيام دولة فى هذه البلاد على أطلال دولة تأذن الله بانحلالها وذهاب ريحها .
وهذا الجامع العتيق يريك معنى للفتوح العربية الأولى قد يخفى على من يقرأ التاريخ عجلان غير متثبت . وتنطق بين يديك خرائب الفسطاط بما قاسته الفسطاط من نيران « شاور بن مجير السعدى » وزير « العاضد لدين الله » الفاطمى وقد زحفت إليها الجيوش الصليبية من فلسطين حتى أصبحت أثرا بعد عين .

فإذا تركت أيها القارىء تلك الآثار ، وأخذت فى سيرك ذات اليسار ، وجدت النيل لم يبرح كما كان أيام الفراعنة والفرس والبطالمة والرومان والعرب والترك ، يتدفق تدفق الزمن هيناً ليناً حثيثاً مطرداً ، لا يعبأ بما يتعاقب على عدوتيه من الدول والأجيال . إنه يمثل القوة الباقية الخالدة ، كما تمثل الخرائب القائمة على جانبيه القوة الزائلة الفانية ؟



دار النـــــدوة[1]

كان العربى القديم ، ديموقرطيا بطبعه ، بمعنى أنه كان ينفر من الاستبداد ، ويؤثر الشورى ورأى الجماعة على رأى الفرد . وأقدم أخبار العرب تدل على توافر هذا الروح الديموقراطى عندهم . من ذلك ماورد فى القرآن الكريم حكاية عن بلقيس ملكة سبأ حين جاءها الهدهد بكتاب سيدنا سليمان ملك بنى اسرائيل ، « قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وائتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وبأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين » ، ومحل الشاهد هنا استشارة بلقيس للملأ من قومها ، وقولها إنها لاتقطع أمرا قبل الرجوع اليهم ، ورد الملأ عليها . وقد فسر « الملأ » بأنه الرؤساء لأنهم ملاء بما يحتاج إليه ، وبالجماعة ، وأشراف القوم ووجوههم ومقدميهم الذين يرجع إلى قولهم . ويروى أن النبى ﷺ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول « ما قتلنا إلا عجائز صلعا» فقال عليه السلام « أولئك الملأ من قريش ، لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك » ، ومن معانى « الملأ » « المشاورة » .

وفى حديث عمر بن الخطاب حين طعن : « أكان هذا عن ملأ منكم ؟ » ، أى مشاورة من أشرافكم وجماعتكم . وكأنهم لحظوا فى أشراف القوم صفة تلزمهم وهى حسن الخلق فجعلوا من معانى « الملأ » حسن الخلق وأنشدوا :

---

(١) حديث بالراديو فى ١٨–١–١٩٤٥ .

تنادوا يا لبهثة إذ رأونا فقلنا أحسني ملأ جهينا

أى أحسنى أخلاقا ياجهينة أو أحسنى الممالأة والمعاونة ، ومنه قول النبي ﷺ لبعض أصحابه وقدضربوا أعرابيا بال فى المسجد : « أحسنوا أملاءكم » أى أخلاقكم ، فالملأ معناه أشراف القوم والجماعة والمشاورة ، كما يفيد أحاسن الأخلاق ومكارم الطباع .

وما جاء به القرآن عن وجود نظام للشورى عند اليمن القدماء قد صدقته الكتابات اليمنية القديمة التى عثر عليها العلماء الأوربيون الذين عنوا بتاريخ اليمن القديم ، فالخبر صحيح من ناحيتى الأثر السماوى والتاريخ البشرى .

* * *

ولا يقل عرب البوادى عن عرب الحواضر من حيث الروح الديموقراطى ، فكان سيد القبيلة أو شيخها كما نقول الآن ينتخب انتخابا طبيعيا ، على معنى أنه يصبح بالفعل سيد القبيلة إذا فاق أفرادها فى الفضائل التى تأتى عادة من قبل الطبع لا التطبع كالشجاعة والفصاحة والكرم ونضج العقل ووقار السن . ولما لم يكن من المؤكد أن تنتقل هذه الصفات من طريق الوراثة من الآباء إلى الأبناء والأحفاد لم تكن سيادة القبيلة منصبا وراثيا إلا فى النادر ، وإلى ذلك يشير عامر بن الطفيل أحد سادات العرب فى الجاهلية بقوله :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل موكب

فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكننى أحمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وليس سيد القبيلة بالحاكم المستبد بقبيلته ، وإنما هو خادمها الأول ، يدل على

ذلك قولهم المأثور « سيد القوم خادمهم »، ويحد من سلطانه مجلس القبيلة الذى يتألف من أشراف القبيلة وذوى المكانة والرأى والسن فيها . يجتمعون للتشاور فى شئون القبيلة وليمدوا سيدها بالرأى، إذا حزب أمر أو ألم خطب.

لم يصل إلينا مع الأسف شيء يذكر من المناقشات التى كانت تجرى فى هذه المجالس القبلية كما يصح أن نسميها ، وذلك لأن العرب كانوا أمة أمية لاتدون أخبارها . ومع ذلك ففى الشعر الجاهلى مايلقى ضوءا على حقيقة هـذه المجالس . ومن ذلك قول مهلهل فى رثاء أخيه كليب : ـ

نبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستب بعدك ياكليب المجلس

وتكلموا فى أمر كل عظيمـــة ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا

* * *

وأشهر المجالس القبلية عند العرب قبل الاسلام المجلس الذى كان لقريش بمكة، وكان يعرف «بدار الندوة ».

كانت هـذه الدار فيما يروون دار قصى بن كلاب الذى جمـع بطون قريش وأنزلها مكة، وذلك قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة . وكانت الدار ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشآمية من الـكعبة . وكانت فسيحة وسيعة ، وفيها كانت قريش تقضى فى شئونها العامة :

(١) ففى دار الندوة كانت تعقد قريش لواءها إذا خرجت للحرب .

(٢) ومن دار الندوة ترحل قوافلها للتجارة، وفى فنائها تحط هـــذه القوافل حمولتها إذا رجعت .

(٣) وإذا بلغ غلام لقريش عذر (أى ختن) فيها .

(٤) وإذا بلغت جارية لقريش جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها (أى قميصها)، ثم درعها إياه، ثم انقلب بها أهلها فحجبوها ، والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين مجرد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش من الذكور والإناث .

(٥) على أن أهم خصائص دار الندوة أنها كانت دار مشورة قريش ، فيها يجتمع ملؤها للتشاور فى أمورها ، و« الندوة » الاجتماع والجماعة. ولم يكن يدخلها للمشورة من غير بنى قصى إلا ابن أربعين سنة ، فى حين كان يدخلها بنو قصى وحلفاؤهم جميعا .

* * *

ولدينا نص عربى قديم يصح أن نعتبره مثالا لنوع المناقشات البرلمانية التى كانت تجرى فى دار الندوة ، إذا حزب قريشا أمر أو ألم بها خطب . يصف هذا النص اجتماع قريش فى دار الندوة وحوارها عندما أرادت الحيلولة بين محمد ﷺ وبين الهجرة إلى المدينة . وما انتهى إليه رأيها فى ذلك . قال المؤرخ العربى القديم محمد بن اسحق « فاجتمعوا فى دار الندوة ... يتشاورون فيما يصنعون . واتعدوا يوما يجتمعون فيه ، فلما كان ذلك اليوم اعترضهم إبليس (والمراد بالطبع زعيم المعارضة المتطرفة فى ذلك اليوم) ، فى هيئة شيخ جليل عليه بت له . فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفا على بابها قالوا من الشيخ ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يعدمكم منه رأى ونصح . قالوا أجل ! فادخل ! فدخل معهم » . ثم يسرد المؤرخ أسماء من

حضر فى ذلك اليوم من أشراف قريش فيقول « وقداجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة : من بنى عبدشمس شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، ومن بنى نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومن بنى عبد الدار ، النضر بن الحارث ومن بنى أسد ، أبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام . ومن بنى مخزوم ، أبو جهل بن هشام . ومن بنى سهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج . ومن بنى جمح أمية بن خلف . قال واجتمع غير هؤلاء من لا يعد من قريش » . ثم يمضى ابن اسحق فى تصوير ما حدث فيقول : « قال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان وما قد رأيتم ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا ! قال فتشاوروا . ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله زهيرا والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه منه ما أصابهم ! فقال الشيخ النجدى « لا والله ما هذا لكم برأى . والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا ، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره » !

ثم تشاوروا ، فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، غاب عنا أذاه ، وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت » .

فيقول الشيخ النجدى « والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة

منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ! أديروا فيه رأيا غير هذا .

قال فقال أبو جهل بن هشام « والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ! قالوا « وما هو يا أبا الحكم ؟ » ، قال أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل كلها فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ورضوا منا بالعقل « اى بالدية » فعقلناه لهم . فيقول الشيخ النجدى : « القول ما قال الرجل ! هذا الرأى ! لا رأى لكم غيره ! » فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له » . ونحن نعلم أن ما دبرته قريش فى ذلك اليوم لم يفلح وأن الرسول أتم هجرته إلى يثرب . وإلى هذا الذى جرى من اجتماع قريش وائتمارها بمحمد يشير القرآن الكريم بقوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » وبقوله أيضا « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » .

***

هذه دار ندوة قريش وبرلمانها فى الجاهلية وعند ظهور الدعوة الإسلامية . أما ما آل اليه أمرها بعد الإسلام فليس يهمنا كثيرا ، ويكفى أن نقول إنها بدخول قريش فى الإسلام انتهى أمرها من حيث هى دار مشورة وندوة ، فلما كانت خلافة

معاوية بن أبي سفيان اشتراها من صاحبها بمائة ألف درهم ، وجعلها دار الإمارة بمكة ، ثم أهمل أمرها وخربت ، فلما كان زمن الخليفة المعتضد بالله العباسى أمر بهدمها وإدخالها فى المسجد الحرام . وبذلك اندرجت دار الندوة القرشية الصغرى فى دار الندوة الأسلاميه الكبرى .

* * *

أما بعد ، فلعلنا نكون قد أوضحنا فى هذا الحديث أن العرب القدماء كانوا مشبعين بالروح الديمقراطى على اختلاف عصورهم وتنوع درجات تحضرهم ، ولقد أقر الإسلام نظامهم الديمقراطى فيما أقر من نظمهم وعاداتهم ، وأمر الله رسوله بالأخذ به ، فقال سبحانه وتعالى « وشاورهم فى الأمر » ، وجعله من صفات المؤمنين فى قوله : « وأمرهم شورى بينهم » . ثم زاد سبحانه هذا النظام تنويها بقدره وإعظاما لشأنه ، فأنزل سورة من سور القرآن أسمها « سورة الشورى » ؟



أحابيش قريش

هل كانوا عربا أو حبشا (*) ؟

يستعمل لفظ « الأحابيش » فى الدلالة على القوة العسكرية التى كانت قريش تستأجرها قبيل الإسلام ، للدفاع عن بلدها وقوافلها التى كانت تتردد بين الشام واليمن . ويؤخذ من صريح النصوص العربية ، لغوية كانت أو تاريخية ، أن هذه القوة كانت عبارة عن حلف قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمة اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة ، ومن خزاعة التى كانت تنزل بظاهر مكة . بهذه النصوص أخذ المستشرق الألمانى الكبير فلهاوزن ، فقال فى كتابه الذى ألفه عن الوثنية العربية [1] هذه العبارة : Die politischen Verbundeten den Quraisk sind die Ahabisch. ؛ ومعناها « الأحابيش أحلاف قريش السياسيون » .

ولكن الأب لامانس المستشرق اليسوعى المعروف نشر فى المجلة الأسيوية [2] مقالا ضافيا عنوانه : Les Ahâbis' et l'organisotion militaire de la Mecque ، ذهب فيه إلى أن رواة اللغة العربية قد وهموا فى تفسير هذا اللفظ ، وأن الأحابيش كانوا كلهم ، أو جلهم على أقل تقدير ، زنوجا من بلاد

(*) نشرت في القسم الأول من المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (مايو ١٩٣٣)

(١) Reste des Arabischen Heidentums, 86.

(٢) Journal Asiatique ,VIII, 1916, 425-482

الحبشة ، وأن رواة السيرة تعمدوا القول بأنهم عرب ، أنفة من أن يقولوا إن قريشا كانت فى الجاهلية تستعين السودان فى الدفاع عن حوزتها [١].

ومع أن الأب لامانس قد أنفق جهدا عظيما فى التدليل على صحة نظريته ، وأن أحدا ، فيما أعلم ، لم يتصد لمناقشة هذه النظرية ، فإنى أرى الموضوع لايزال مفتقرا إلى التحقيق . وأريد فى هذا البحث الموجز أن أثبت ثلاثة أمور :

(أولا) أن الأحابيش كانوا عربا .

(ثانيا) أن القول بعربيتهم هو المتفق مع تاريخهم .

(ثالثا) أن العبيد الذين كانت قريش تستعين بهم فى حروبها لم يكونوا من الأحابيش فى شىء .

(١)

لا شك أن بين كلمتى « حبش » و « أحابيش » تجانسا شديداً فى اللفظ واتحاداً فى المعنى من بعض الوجوه .

ولكن ثانى اللفظين ينفرد بمعان تعدل به فى أغلب أحواله عن مدلول اللفظ الأول عدولا تاما . جاء فى القاموس المحيط فى مادة « حبش » : — الحباشة كثمامة : الجماعة من الناس ليسوا من القبيلة كالأحبوشة . وجاء فى لسان العرب فى المادة المذكورة :- والأحبوشة جماعة الحبش ، ويقال هم الجماعة أيا كانوا ، لأنهم إذا تجمعوا اسودوا ، والتحبيش التجمع .... وفى المجلس حباشات وهباشات ، أى ناس ليسوا من قبيلة واحدة ، وهم الحباشة الجماعة والأحابيش ، وتحبشوا عليه اجتمعوا ... والحبشان الجراد الذى صار كالنمل

(١) Ibid, p. 467

اسوداداً . فالتفسير اللغوى يفيد أن لكلمة « الأحابيش » ثلاثة معان خاصة :

(١) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة . (٢) التجمع والتأشب ، ولا بأس أن نلاحظ بهذه المناسبة أن كلمة « حبش » و « حباش » و « تحبيش » تفيد هذا المعنى فى اللغة العربية الدارجة . (٣) كثرة العدد ويكنى عنها بالسواد ، لأن العرب تنعت الشيء إذا كثر وتكاثف بسواد اللون .

وهذا التفسير اللغوى يتمشى مع مدلول الأخبار الواردة فى بيان أصل نظام الاحابيش . جاء فى سيرة ابن هشام ما يأتى : قال ابن اسحق : والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة . قال ابن هشام : « تحالفوا جميعا فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »[١]. ويقول صاحب معجم البلدان :- « حبشى . . . جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك ، يقال به سميت أحابيش قريش وذلك أن بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة إجتمعوا عنده وحالفوا قريشا ؛ وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار ، وما رسا حبشى مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل ، وبينه وبين مكة ستة أميال. مات عنده عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق فجأة ، « فحمل على رقاب الرجال إلى مكة »[٢]. وجاء فى لسان العرب[٣] : « وحبشى جبل بأسفل مكة ، يقال منه سمى أحابيش قريش ، وذلك أن بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة إجتمعوا عنده فحالفوا قريشا ، وتحالفوا بالله : إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل

---

(١) سيرة ابن هشام : طبعة جوتنجن : ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .
(٢) معجم البلدان ـ مادة حبشي .
(٣) لسان العرب ـ مادة حبش .

ووضح نهار ، وما أرسى حبشى مكانه ، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل » .
ولا بأس فى هذا المقام أن نستدل بشعر السيرة ، فإنه على كثرة منحوله وقلة
صحيحه ، شعر دون فى القرن الثانى الهجرى ويبين ما كان متعارفا إذ ذاك عن
الأحابيش . قال هبيرة بن وهب المخزومى يفتخر بيوم أحد :[1]

سقنا كنانة من أطراف ذى يمن عرض البلاد على ما كان يزجيها
قالت كنانة أنى تذهبون بنا ؟ قلنا النخيل فأموها ومن فيها !

فأجابه حسان بن ثابت فقال :ـ

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول لجند الله مخزيها
جمعتموهم أحابيشا بلا حسب أئمة الكفر أغرتكم طواغيها

فهذه الأبيات صريحة فى أن المراد بالأحابيش هو كنانة . وقال
حسان أيضا :

إذا عضل سيقت إلينا كأنها جداية شرك معلمات الحواجب
أقمنا لهم طعنا مبيرا منكلا وحزناهم بالضرب من كل جانب
فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون فى الأسواق بيع الجلائب

وعضل حى من بنى الهون بن مدركة[2]، فهى من الأحابيش . ومعنى البيت
الأخير أنه لولا استقتال هذا الحى حول اللواء الذى رفعته يوم أحد تلك المرأة
الحارثية لوقعوا فى الأسر فبعناهم بالأسواق كما تباع العبيد المجلوبة . من هذه
النقول التاريخية نأخذ أن الأحابيش :

(١) كانت أحياء عربية شتى تنتمى إلى كنانة وخزيمة وخزاعة .

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٦١٢ ـ ٦١٣ .
(٢) سيرة ابن هشام ص ٦٣٨ .

(٢) أن هذه الأحياء تجمعت بواد يقال له الأحبش ، أو عند جبل يقال له حبشى ، وتحالفت فسميت الأحابيش .

(٣) أنها حالفت قريشاً على التناصر والتآزر فالمدلول التاريخى لكلمة « الأحابيش » متمش مع مدلولها اللغوى ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل ومحالفتها قريشا بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال فى صحة النتيجة التى وصلنا إليها بهذه المقارنة : وهى أن الأحابيش عرب . والحق أنا بإزاء قبيلة عربية آخذة فى التكون ، بواسطة الحلف الذى كان سببا فى تكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجىء الإسلام وحيلولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة، على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتا « تنوخ »[١] و « الرباب »[٢].

(٢)

وجنسية الأحابيش العرب يؤكدها تاريخ حلفهم الذى نرجح أنه قام فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وانتهى بفتح الرسول مكة سنة ثمان للهجرة . فإنا إذا رجعنا إلى تاريخ عصر النبوة وجدنا الأحابيش طوال ذلك العصر الخطير قوة عربية لها خصائص القبيلة ، من سيد يتزعمها ، وأرض تنزلها ، وراية تحف بها عند الحرب ، وأنها كانت من حيث علاقاتها السياسية بقريش تتنزل منها منزلة الحليف من الحليف ، والند من الند ، وأنها كانت مسموعة الكلمة فى الشئون العامة لقريش ، وإلى القارىء النصوص التى تؤيد ذلك :

(١) كان سيد الأحابيش فى السنوات الأولى من عهد النبوة رجلا يقال له

---

(١) الطبرى — المجلد الأول ص ٧٤٦ .

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١١١ .

« ابن الدغنة » . فلما خرج أبو بكر من مكة مهاجرا للأذى الذى ناله من قريش لقيه ابن الدغنة فأجاره ورده إلى مكة . فلم تعرض قريش لأبى بكر بسوء ، احتراما لهذا الجوار . وظلت كذلك إلى أن خافت أن يفتتن أبناؤها ، فشكت أبا بكر إلى مجيره ، فما كان من أبى بكر إلا أن رد على ابن الدغنة جواره [1].

(۲) يقول الطبرى فى كلامه على غزوة أحد ، رواية عن ابن إسحق : « وقد كان الحليس بن ذبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومئذ سيد الأحابيش ، مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول : ذق عقق ! فقال الحليس : يابنى كنانة ! هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما . فقال : « ويحك اكتمها على فإنها كانت ذلة » [2].

(۳) ويحدث الطبرى فى خبر الحديبية عن ابن إسحق عن الزهرى فيقول : « ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش ، وهو أحد بلحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله ، ﷺ ، قال : « إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، قد أكل أوباره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ ، إعظاما لما رأى ، فقال : « يا معشر قريش ! إنى قد رأيت مالا يحل ، صد الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله » . قالوا له « اجلس ، فأنما أنت رجل أعرابى لاعلم لك .... » ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال « يامعشر قريش ! والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أن تصدوا عن بيت الله من جاء

---

(۱) سيرة ابن هشام ٢٤٥ – ٢٤٧ .

(۲) الطبرى – طبعة ليون ، المجلد الأول ص ١٥٣٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معظما له . والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد » .

فقالوا له : « مه ! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به »[١]

(٤) يروى الطبرى فى خبر الحديبية أيضا عن ابن إسحق أن النبى دعا خراش بن أمية الخزاعى ، فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على جمل له يقال له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له . فعقروا به جمل رسول الله ، وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ[٢].

وقد عرف الرسول كيف يفل قوة الأحابيش التى كانت تعتز بها قريش ، وسلك إلى تلك الغاية طريق السياسة وطريق العنف معاً . فأما السياسة فأنه اجتذب إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التى تنتمى إليها أحياء الأحابيش . فكانت خزاعة كما يروى ابن اسحق ، « مسلمهم ومشركهم عيبة نصح رسول الله ﷺ بتهامة ، صفقتهم معه ، لايخفون عنه شيئا[٣] » . كما أن غفارا [٤] وهى من كنانة ، وأسلم[٥] وهى من خزاعة ، أخذتا جانبه ؛ ووردت فى الثناء عليهما أحاديث عدة . فلما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ، ودخلت فى عقده ، كما دخلت بكر بن عبد مناة بن كنانة فى عقد قريش . وأما العنف فنتبينه فى غزوة بنى المصطلق سنة ٦ للهجرة . بهذه السياسة المحكمة انكسرت شوكة الأحابيش كما يرى من موقفهم فى صلح الحديبية .

---

(١) الطبرى ــ المجلد الأول ص ١٥٤٢ .
(٢) الطبرى ــ المجلد الأول ص ١٤١٨ .
(٣) سيرة ابن هشام ٥٨٩ .
(٤) الطبري ــ المجلد الأول ص ١٦٣٥ .
(٥) الطبرى ــ المجلد الأول ص ١٦٣٥ .

وفى يوم فتح مكة قاتلت الأحابيش خالد بن الوليد بأسفل مكة قتالا يسيرا [١] .

واستعانة أهل الحواضر بأهل البوادى كانت ظاهرة سياسية عامة فى بلاد العرب قبل الإسلام . فكما كانت الأحابيش بالإضافة إلى قريش ، كانت الأوس والخزرج بالإضافة إلى يهود يثرب [٢] ، وكانت بنو عامر بن صعصعة بالنسبة إلى ثقيف بالطائف [٣] . ولقد عاقد يهود خيبر بنى فزارة على نصف غلة أرضهم إذا هم حاربوا معهم النبى ﷺ [٤] .

(٣)

وبعد ، فلقد كان بمكة قوة من الحبش حقا . ولكن هذه القوة لم تكن من الأحابيش فى شىء ، بل كانت عبارة عن طبقة من العبيد مسلوبة الحقوق العامة ، ومسخرة لأشراف مكة فى حالى السلم والحرب ، وبعض هذه الطبقة قد شرى بالمال ، وبعضها كان من فلول حملة أبرهة الحبشى على الحجاز . . يقول الأزرقى [٥] : « وأقام بمكة فلال من الحبش وعسفاء وبعض من ضمه العسكر يعتملون ويرعون لمكة » . ويقول صاحب الأغانى [٦] : « وكان لعبد الله بن أبى ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا . فروى عن سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله ﷺ : هل لك فى حبش بنى المغيرة

---

(١) الطبرى ـ المجلد الأول ص ١٦٣٥.
(٢) السمهودى : جـ ١ ص ١٢٥ (طبع مصر) .
(٣) ابن الأثير : جـ ١ ص ٢٥٣ (طبع مصر).
(٤) السمهودي : جـ ١ ص ٢١٤.
(٥) أخبار مكة للازرقي ص ٩٧.
(٦) الأغاني : جـ ١ ص ٣٢ .

تستعين بهم ؟ [١] فقال لا خير فى الحبش : إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا ، وإن فيهم لخلقين حسنين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس » . فلما ظهر الإسلام بمكة أسرع عدد وافر من هذه الطبقة إلى اعتناقه ، فجــــر ذلك عليهم اضطهاد أوليائهم وقبائلهم ، كما كان من أسباب اشتداد الخصومة بين الرسول وقريش . من هـذه الطبقة المغلوبة على أمرها أبو رافع ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، ووحشى قاتل حمزة يوم أحد ، وصؤاب حامل لواء قريش فى ذلك اليوم . كل هؤلاء كانوا أرقاء قد نص فى كتب السيرة على ساداتهم وعلى طريقة تحرر بعضهم من الرق .

ومما يدل على تمييز هذه الطبقة من الأحابيش قول الطبرى فى غزوة أحد[٢] : فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الاحابيش وعبدان أهل مكة ، وعطف عبدان على ماقبلها هنا عطف نسق يفيد المغايرة ، وليس عطف توضيح وبيان كما يرى الأب لامانس[٣]

بهــــذه التفرقة بين أحابيش قريش وعبيدها يستقيم قول النصوص التي أوردناها أن الاحابيش كانوا حلفاء قريش ، وقـول صاحب لباب النقول[٤] : « واستأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين من الأحابيش » ، فالمحالفة والاستئجار إنما ينصبان على الأحرار دون الأرقاء .

وعندما دون عمر بن الخطاب الدواوين أفرد لهذه الطبقة ديوانا خاصا ، سماه ديوان الحبش . يقول الماوردى [٥] : وذلك لمكان بلال منهم ؟

---

(١) وذلك عند مسيره الى هوازن

(٢) الطبرى المجلد الأول ص ١٣٩٩ .

(٤) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٢٥ من الطبعة المصرية .

(٥) الأحكام السلطانية (وضع الديوان)

دار الأرقم المخزومي

لقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من دخلوا فى الاسلام فى السنوات الأربع الأولى من بعثة النبي ، عليه السلام ، فإذا هم بضع وثلاثون نفسا ، جلهم ممن كانت تصل بينهم وبين محمد صلة قرابة أو صداقة . ولقد يعلل بطء الدعوة فى تلك السنين العجاف من حياة الأسلام بأن محمدا لم يكن يجد فيها من حرية القول وأمن المضطرب ما يمكنه من إيصال الدعوة إلى من هو مستعد لقبولها من خاصة قريش وعامتها . لقد كان أبدا بعرض أذى وإعنات ، كما كان النفر الذين اتبعوه أبدا بعرض فتنة واضطهاد .

ولقد أحصى مؤرخو السيرة عدة من هاجروا إلى الحبشة فى العام السادس للبعثة ، فإذا هم لا يتجاوزون مائة نفس غير من تحمل معهم من ذراريهم . فيهم الرجل والمرأة ، والحر والعبد ، والصريح فى نسب قريش والدخيل . لشد ما أعقبت هذه السنوات الست العجاف من حياة الدعوة الإسلامية سنوات سمان ؛ ففي نحو سنتين اثنتين بلغ عدد من دخل فى الإسلام مثلى من دخلوه من قبل ، إذا قدرنا أن مهاجرة الحبشة كانوا ، على أقل تقدير ، على النصف من عدة الجماعة الأسلامية .

وليس من شك فى أن تلك النقلة العجيبة راجعة إلى أن محمدا أصبح يجد فى هاتين السنتين ، من حرية القول وهدوء السرب مالم يكن يجده من قبل . ولقد وجد محمد الأمرين جميعا فى دار من دور مكة ، لم تنب به ، ولم يضق صاحبها به وبأصحابه ذرعا ، كما ضاق كثير غيره ، تلك هى دار أرقم بن أبي الأرقم المخزومي .

والأرقم بن أبي الأرقم سابع سبعة سبقوا الناس جميعا إلى الإسلام . وهو من بني مخزوم ، وكان بنو مخزوم ممن نصب للنبي العداوة ونفس عليه الرسالة . فقد فسروا قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » بقولهم : أى على رجل عظيم من أهل مكة ، كالوليد بن المغيرة المخزومى، أو من أهل الطائف كعروة بن مسعود الثقفى . وكان خالد بن الوليد بن المغيرة هذا قائد خيل مشركى قريش فى وقعة أحد ، وبتدبيره انكسر جيش محمد عليه السلام فى تلك الغزوة المشهورة .

ولاشك أن سبق الأرقم المخزومى إلى الأسلام دليل على أن دعوة الرسول غزت من أول أمرها أمنع صفوف أعدائه وألدها خصومة . وقد هاجر الأرقم إلى المدينة ، وحضر مع رسول الله بدرا وأحدا والخندق وسائر مشاهده صلى الله عليه وسلم .

وقد عمر طويلا ، فقد توفى عام ٥٥ هـ عن سن عالية جاوزت الثمانين سنة .

وأما دار الأرقم فتقع شرقى الكعبة ، على منحدر جبل الصفا ، يمر بها الساعون فى سعيهم بين جبلى الصفا والمروة جيئة وذهابا . ويؤخذ من فحوى الرواية القديمة أنها كانت فسيحة ، وثيقة البنيان ، محكمة الرتاج ، ثم هى مطلة على الكعبة والمسعى وغير بعيد من دار السيدة خديجة ، فكانت بكل هذه المزايا مركزا صالحا لنشر الدعوة الجديدة .

« دخل النبى دار الأرقم » فى السنة الرابعة من بعثته « وجعل يدعو فيها » كما يقول مؤرخو السيرة . وقضى النبى فيها سنتين أو أكثر قليلا ، وقد حقق ، عليه السلام ، فى هذه الدعوة غرضين عظيمين : أولهما تقريره أصول رسالته فى نفوس أصحابه ، وثانيهما بثه الدعوة من هذه الدار فى جميع آفاق المجتمع المكى . وفى

طاقة الخيال المحدود أن يتصور ما كان يجرى عادة فى تلك الدار أيام مقامه عليه السلام بها . فها هو ذا فى صدر فناء الدار بسمته ووقاره، وجاذبيته، وروحانيته، ومن بين يديه أصحابه ، وكلهم أوجلهم فى مقتبل السن وعنفوان الشباب .

ها هو ذا يتلو عليهم ما يتنزل عليه من الوحى من تلك السور المكية الأولى، بما اشتملت عليه من أمر بعبادة الله وحــــده ، وترغيب فى ثوابه ، وتحذير من عقابه .

وهاهم أولاء أصحابه يلقفون كل كلمة تنفرج عنها شفتاه الكريمتان وحيا كانت أو حديثاً .

وهاهم أولاء ينقلبون دعاة ينشرون الدعوة فى أنحاء مكة ، فيستجيب لهم من رأى فى الدين الجديد جمالا وخيرا . وهاهم أولاء الراغبون فى الدخول فى الإسلام يسرعون إلى دار الأرقم ليعلنوا إلى محمد دخولهم فى دينه وقبولهم لرسالته. فمنهم من يأتى اليها تسللا وخفية، كمافعل صهيب وعمار ومصعب بن عمير. ومنهم من يأتى إليها فى وضح النهار ، كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وهاهو ذا النبي يأخذ بمجامع رداء عمر وقد التبس عليه أمر مجيئه ويجبذه جبذة يتزلزل لها قلب ذلك الفتى المتعنت الجامح ، فلا يملك أكثر من أن يعلن إيمانه بالله ورسوله . وهاهو ذا النبي يكبر عندما يسمع إسلام عمر وهاهم أصحابه يكبرون من داخل الدار لتكبيره عليه السلام .

كان إسلام عمر بن الخطاب فى ختام السنة السادسة للبعثة . عند ذلك يرى النبي أن قد آن أن يبرح دار الأرقم ، فقد كثر أصحابه ورسخت فى قلوبهم دعوته ، فيبرحها ويواجه قريشا بأولئك الصحابة الذين أصبحوا يرون الخير كل الخير فى أن يعم الدين الجديد مكة ، بل الحجاز، بل جزيرة العرب ، بل العالم جميعا.

أما بعد، فقد عرف المسلمون فى مختلف عصورهم لدار الأرقم عظيم حرمتها وشرفها ، فأولوها عناية بالغة .

اشترى أبو جعفر المنصور حق حفدة الأرقم فيها بمال كثير . والظاهر أنه أراد أن يضاهى بعمله هذا ما عمله معاوية بن ابى سفيان من شرائه دار الندوة . ثم صيرها المنصور لولى عهده المهدى . وصيرها المهدى لزوجه الخيزران . ولما حجت الخيزران سنة ١٧١ هـ وسعتها بأن ضمت إليها الدور المجاورة لها، بعد شرائها من أصحابها . ويظهر أنه فى ذلك الوقت أصبح مكان اجتماع النبي بأصحابه فى تلك الدار مسجداً أقيمت عليه قبة عاليـــة ، وأن الدار كلها أصبحت تسمى بدار الخيزران ، بعد أن كانت تسمى بدار الإسلام . وقد جددت الدار غير مرة بعد ذلك ؛ وأشهر من عمرها عمارة حسنة الوزير أبو جعفر الأصفهانى فى سنة ٥٥٥هـ كما يؤخذ من كتابة لا تزال محفوظة بها .

وانتقلت الدار من يد إلى يد، حتى صارت إلى السلطان العثمانى مراد الثالث. وكان السلطان ســـليم الثانى قد أراد أن ينشىء فيها مبرة عظيمة لفقراء مكة ، فصرفته عن ذلك شواغل الملك .

فليت القائمين بأمر الحجاز يعنون بأمر هذه الدار العظيمة ، فينشئوا فيها مدرسة تعلم فيها أصول الدين الاسلامى، فلعمرى! لقد كانت أول وأعظم مدرسة فى الاسلام ، ومنها سال السيل وانبثق النور ؟.

أم المؤمنين

خديجة بنت خويلد[1]

كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعراً وثاب الخيال ، مطلق العاطفة ، جزل الألفاظ ، سرى المعانى ! إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة ، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال ، وطهر ، وعفاف ، وزوجية بارة ، وأمومة صحيحة ، ومواساة فى أشرف معانيها .

ولكن صاحب هذا المقال ، وا أسفاه ! ليس شيئاً من ذلك الشاعر الذى يتمنى أن يكونه . إن هو الا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها الوضعية جهد طاقته ، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع ، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق ، ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنكب سبيل المؤرخ الذى همه البحث والتحقيق ، ثم العرض البسيط للأشياء ؛ فليقنع القارىء الكريم بالصورة المجملة التى أرسمها فى هذا المقال ، حتى يتأذن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الألياذة العربية ، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه .

* * *

كانت جزيرة العرب فى القرن السادس الميلادى قد أخذت تتهيأ للأحداث

(١) الرسالة ٤ ٢٠ ابريل ١٩٣٦ .

الجسام التى تمخض عنها القرن السابع ، وقــد بدا ذلك التهيؤ فى جميع مناحى الحياة العربية العامة ، سياسة كانت أم اقتصادية أم اجتماعية ، ويهمنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة .

كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول فى حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة إلى النحو الذى أقره فى جملته الإسلام فيما بعد ، فأخذت تتلاشى ضروب الأزدواج القديمة التى اعتــبرها الإسلام سفاحا ، ويحـل محلها نظام الزواج القـائم على التراضى والتعاقد .

وصاحب هـذا التطور الخطير فى بناء الأسرة تطور خطير مثـله فى مكانة المرأة الاجتماعية ؛ فبعـد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التمـلك ولا حق الأرث ، بل بعـد أن كانت هى نفسها تملك وتورث فى بعض الحالات ، أصبحت تستمتع بحق الملـكية وحق الميراث وحق التصرف فى مالهـا ، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم ، هـذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربيـة عاملا فعالا فى الحياة الملـكية العامة قبيل الإسلام وفى عصر النبوة .

* * *

ولدت خديجة بمكة حوالى منتصف القرن السادس المذكور . وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبـد العزى بن قصى ، وكان خويلد ممن قاد قريشـا فى حرب الفجار ، ثم هى ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤى ، ولا نعرف عن فاطمة شـيئا ، غير أن الذهبى يقول فى جدها عمرو بن خنـثر المزنى أنه كان من أبطال الجاهليـة . فنسب خديجة لأبيها وأمها يدل على أنهـا تنتمى إلى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصى ، وإلى قبيلة من أعز قبائل مضر هى عامر بن لؤى ، واكتنفت عمـود هذا النسب الجليـل

فروع وحواش زاهية زاهرة ، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش ، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام ، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل ، فاما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى فى صنيعه لبنى هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش فى الشعب ، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا فى تلك العصبة المستنيرة التى يعرف آحادها باسم « المتحنفين » قد ترك الوثنية ، وتنصر وقرأ التوراة والأنجيل ، وكتب العبرانية ، وشاركته أخته قتيلة فى ميوله الأدبية والدينية ، فكانت « ممن ينظر فى الكتب » على حد تعبير القدماء ، ومن هذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد ، وكان من رجالات قريش ، وهو والد الزبير بن العوام حوارى رسول الله .

فخديجة من أوسط نساء قريش نسبا ، كما يقول مؤرخو العرب ، وإذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة فى هذا المقام ، فإنا نقول إنها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربى ، من نبل وكرم خلق ، ووفاء وشجاعة ، كما لقفت عن عمومتها تلك الأستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحانى الذى أعدها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر.

٭ ٭ ٭

تزوجت خديجة مرتين فى مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التميمى . ثم توفى ابو هالة فغدت أيما . وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثا قيما رأت أن تقوم على استغلاله فى التجارة التى كانت مرتزق قريش فى ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال فى الأتجار لها بمالها لقاء نصيب تسهمه لهم من الربح .

لكن خديجة الحسيبة النسيبة ، الثرية الوسيمة ، لم تزل بعد نصفا فى النساء ، عوانا بين الشباب والكهولة ، قد شارفت الأربعين ولما تعدها ، وهى سن لها عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذة ، وكان غير واحد من كبار قريش حريصا على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب ، لا رغبة منها فى العزوبة ، فهى أعمر قلبا وأنضر شبابا من أن ترغب فيها ، ولكن لأن الأيدى التى كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذى يعجبها . لقد نضج عقلها ، وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد الكفء والمثيل ، ومن لها بالعقل الراجح ، والقلب الكبير فى مجتمع خشن ، كثيف غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربى الجاهلى بما ينطوى عليه فى واقع الأمر من بداوة واعرابية ، لا يمكن أن تنىء منهما إلى ظل ظليل .

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئا فشيئا صورة نجم شارق فى أفق المجتمع المكى ، ويوشك أن ينكشف عن كوكب وقاد يملأ الكون نورا هاديا . وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبق له منها الا الذماء . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال . أنها كانت صورة فتى لا يزال مغمورا ، ولكن كل مخايله كانت تؤذن فى نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله .

كان محمد إذ ذاك شابا قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الخلقة ، مشرق الطلعة ، نبيل المظهر ، كريم المخبر . وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها بمكة أحد غيره . كان زاهدا فى الناس ، عزوفا عنهم ، الا ما اقتضته ضرورة المعايشة والمساكنة ، نزوعا إلى التفكير ، محبا للعزلة ، قادعا للشهوة رادعا

للنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغـــدا أنسه فى وحشته، وانبساطه فى انقباضه ، وغناه فى اقلاله ، قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح المعالم . ثم لم يأذن لعلاقته بهم ان تتجاوز هذا الحد فتنغص عليـــه نعمة باله ، وتفسد عليه هدوء سر به .

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقانا شديدا عنـــدما كانت تلمح هذا الفتى العجيب ، يروح لطيته ويغدو فى طرق مكة وأسـواقها وأنديتها ، وأدركت من فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولـكن كيف تفضى إليه بدخيلة نفسها ، وتبثه لاعج حبها ؟ ان الحسب والنسب ، والخفر والحياء ، كل ذلك كان يمنعها أن تـكون هى التى تخطو فى الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الـكلمة الأولى . لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة ، حرجا كل الحرج فلتسر فى الأمر بحـذر واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرها وقنية لحيائها .

انها كانت تستأجر الرجال فى الأتجار لها بمالها وتساهمهم بنصيب مسمى من الربح ، فلم لا تستأجر محمـــدا وتضاعف له الجعل الذى كانت تجعـله لغيره ؟ وانشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ، فوسطت إلى محمد من عرض عليه رغبتها . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر إلى الشام فى صيف عام ٥٩٤ متجرا فى مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهى إلى السيدة عند عودته جلة حاله فى السفر ، فتلم بجملة حاله فى السفر والحضر . وباع محمد ، واشترى ، ولقى الرهبان ببادية الشام ، وتحدث إليهم ، وتحدثوا إليه ، ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحا وفيرا . وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمـد فى السفر من رقة الشمائل ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ، فعلمت السيدة عند ذلك أن قلبها لم يكذبها ، فقطعت كل تردد ، وأجمعت أن تخطو هى الخطوة

الأولى ، وتقول هى الكلمة الأولى ؛ وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منيه ، فدستها إلى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة ـ يامحمد ! ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد ـ ما بيدى ما أتزوج به !

نفيسة ـ فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاية ، ألا تجيب ؟

محمد ـ فمن هى ؟

نفيسة ـ خديجة !

محمد ـ وكيف لى بذلك ؟

نفيسة ـ على !

محمد ـ فأنا أفعل !

لا شك أن محمدا لم يقل مقالته الأخيرة الا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه ، وبعد أن أصبح يبادلها عطفا بعطف ، وتقديرا بتقدير . نعم إنها أسن منه ، ولكن ذلك ليس شيئا بالقياس إلى محاسنها وفضائلها الكثيرة التى جعلته يرى فيها رغيبة نفسه وطلبة قلبه ؛ وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها ، فكل وافق ، وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون .

* * *

كان هذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأودعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والإخلاص والتقدير . كانت خديجة تقدر

في محمد كريم الخلق ورقة القلب ، وروحانية النفس ، وكان هو يقدر فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه ، والأعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته في منزله. ومطابقته فيما يجب وما لا يجب.

ولا ننس ان محمداً لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق . فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يطعم . ولا كل الشراب يشرب ، ولا كل الملبس يلبس . ولا بكل الزينة يزدان . ثم هو ميال بطبعه إلى العزلة مؤثر للصمت ، مطيل للفكر . فعلى جليسه وعشيره أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له ، وقد عرفت ذلك خديجة ورعته له أتم رعاية ، فلا شك أنها كانت تعد له مايستطيبه من الدباء والعسل والتمر المنقوع فى اللبن المخلوط بالقثاء أحيانا ، ولا شك أنها كانت تقل فى طعامه من البصل والثوم الذين كانت تعاف كثرتهما نفسه . كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه . فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم ، نظيف الملبس . ولا شك أنها كانت توفر له الهدوء فى المنزل . وإذا جنح إلى الخلوة أو التحنث فى الغار لم تقطع عليه سكونه . بل أعانته على ذلك بإعداد الزاد الذى يحتاج اليه . فإذا طالت غيبته افتقدته من غير ازعاج له . ولا تكدير لصفو نفسه .

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفيه بزوجها . فإنها كانت مثال الأم المعنية بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير ابراهيم . رزق منها القاسم وبه كان يكنى . ثم ولدت له زينب ورقية . وفاطمه وأم كلثوم . وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة . ثم ولد له فى الأسلام عبد الله الذى عرف بالطيب والطاهر . وقد مات الغلامان صغيرين .

أما البنات فكلهن أدركن الإسلام . وتزوجن ، وهاجرن . وقد انضم إليه

هؤلاء على بن أبى طالب . ضمه النبى إلى أولاده تخفيفا عن عمه أبى طالب وكان فقيرا كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم ، غير أن ماورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة . روى ابن سعد عن الواقدى قال : « وكانت سلمى بنت صفية مولاة عبد المطلب تقبل خديجة فى ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت تسترضع لهم . وتعد ذلك قبل ولادها » وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها .فهى التى أشارت على النبى بأن يزوج أبا العاص بن الربيع من بنتها زينب . فلما زفت إليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن فيما بعد سيرد ذكره . ولما أرادت قريش حمله على أن يطلق زينب نكاية فى محمد أبى أن يفارقها مع أنه لم يكن قد أسلم بعد . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فلما توفيت ورآه النبى حزينا مهموما طفان زوجه أختها أم كلثوم وكانت فاطمه عند زوجها على بن أبى طالب بالمحل الرفيع والمكان الممتاز

* * *

لكن فضل خديجة الأكبر ونخرها الخالد خلود الزمن ، انما هو فى موقفها من زوجها عندما نبىء ومن الدعوة الإسلامية التى أخذ يدعو اليها بعد خمس عشرة سنة من زواجه منه

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادىء السرب ناعم البال ، وأصبح له منزل يأوى اليه وأهل يسكن اليهم، فانصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى فى مسلكه

بأسا . فلما فجيء الوحى محمدا ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والحيرة ، ورجع إلى منزله رعبا حائرا ، وقال لخديجة : « لقد خشيت أن يكون بي جبنا » لم يكن منها ألا أن ثبتت فؤاده ، وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة : والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، ...وتؤدى الأمانة،وتحمل الكل، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر... الخ » ثم أنها انطلقت من فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . وقصت عليه خبر زوجها . فبشرها ورقة بأن الذى رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى. وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها. فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به . روى الطبرى بإسناده إلى عفيف الكندى أنه قال : « كنت امرءا تاجرا ، فقدمت أيام الحج ، فأتيت العباس . فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلى معه . فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه . فقلت . ياعباس ما هذا الدين ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه على بن أبي طالب آمن به ، قال عفيف . فليتنى كنت آمنت يومئذ ، فكنت أكون ثالثا » .

ولم يزدد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخا . ولا يقينها إلا قوة،ولا تعلقها بزوجها إلا شدة ، فكانت فى سنوات العشر الأولى للبعثة ، وهى السنوات التى توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد ، كانت خديجة فى تلك السنوات إلى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه ، وتأسو بعطفها جراحه . روى ابن الأثير بإسناده قال : « وكانت

خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله لا يسمع شيئا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرج الله عنه بها ، إذا رجع إليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس ».

ولم تتردد خديجة عندما جد الجد ، أن تشرك زوجها في محنته ، وتقاسمه مر العيش كما قاسمته حلوه ، وتحمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة . فعندما اشتدت قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم فى الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ، كانت خديجة فى الشعب تقاسى ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها : فلما فاءت قريش إلى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين . كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش إلا قليلا . وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة . بالغة من العمر خمسة وستين عاما . وقد دفنها الرسول بالحجون . وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة .

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفى نفس العام عمه أبا طالب . وهو الذى كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد فى وقت واحد خطبان فادحان . ورزآن بالغان . ولكن لا شك فى أن داخل رزئيه كان الأفدح : وباطن جرحيه كان الأدمى . لقد تهدم صرح سعادته المنزلية . وغدت الحياة مثقلة له فى الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه الله فى الداخل والخارج .

* * *

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه ، وأكرم من ألا يفى للحبيب صدقه الحب . وأصفاه الود . ولو باعدت بينه وبينه طباق الثرى . وكذلك

كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد وفى لها فى حالى الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها فى حياتها . فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه . وهم يرون فى ثنائه عليها ودوام تذكره لها اخبارا كثيرة ، يرون أنه فضلها هى ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب . وأنه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بقلادة قلدتها إياها خديجة ، لتفتدى بها زوجها أبا العاص بن الربيع وكان قد أسر ببدر رق النبي لذلك رقة شديدة ، وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها ومالها ففعلوا ، وأنه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى إليهن منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثنى عليها ، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهى بعد آثر نسائه لديه ، وأجملهن ، وأصغرهن سنا . روى بن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام ، فأدركتنى الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزا فقد أبدله الله خيرا منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء ، قالت : فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً .

* * *

تلك بالإختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة ، يعرف فيها القارىء المثل الأعلى للمرأة ، زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور فى غير خروج على طبيعة الجنس ومواضعات الناس منذ صار الإنسان إنسانا ؟

الهجـــــرة (١)

كان من أثر الإتجاه المادى الحديث فى فهم حوادث التاريخ وتعليلها
أصبح المؤرخون أشبه شىء بالفلاسفة الكلبيين القدماء الذين كانوا
الإنسان من عاطفة الخير، ويعتقدون أنه أنانى بطبعه، لا يصدر عنه
رياء ونفاقا، ولكن من حسن حظ الحقيقة والفضيلة أن بعض أحداث
يكذب هذه الدعوى وينقضها نقضا صريحا. ولست أجد فى التاريخ
أنقض لتلك الدعوى وأشد تكذيبا من حديث الهجرة التى وقعت زمن
سواء أكانت هجـــرة الحبشة أم الهجرة إلى المدينة، ففى كلتا الهجرتين
الإخلاص للعقيدة مجسما محسوسا والتنزه عن حطام الدنيا واضحا ملموسا
القارىء أسوق المقال الآتى توضيحا لهاتين الهجرتين فى ضوء الحياة ا
ابتعثتهما وأدت إليهما.

* * *

لقد حمل الإسلام من أول الأمر على ما كان لقريش من نظم وا
حملة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة. فكان محمد يقرع أسماع قومه
عليـه من القرآن ناعيا عليهم وثنيتهم المنحطة، ونظامهم الإجتماعى الذ
أغنياء وفقراء وسادة وعبيدا، مهجنا تكاثرهم بالأحساب والأنساب
طرقهم الملتـــوية فى المعاملات. من تطفيف الكيل والميزان وأكل

(١) الرسالة العدد ٤٢ في ٢٣ أبريل ١٩٣٤.

الناس بالباطل . محـــذرا لهم إن هم أصروا على عتوهم واستكبارهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم عندما أعرضت عما بعث به إليها الرسـل من أسباب الهداية والإصلاح .

لم يجب هـــذه الدعوة التى تكفلت بخيرى الدنيا والآخرة إلا فريق قليل العـدد وسـيط المكانة فى المجتمع القرشى . أما المـلأ من قريش فرأوها دعوة صريحة إلى الفوضى وقلب الأوضاع . ورأوا فى محمد ثائراً يريد هـــدم النظم التى درجت عليها الجمهورية المكية من قـديم . ثم من يدريهم لعلهم إن هم اتبعوه التأف عليهم الأمر واضطرب الحبل ، فإن الهدم عادة أيسر من البناء . تلك كانت حجتهم فى عـدم متابعته ، وهى حجة الجامدين على المصلحين فى كل زمان ومكان .

وكان موقف قريش من محمد أول الأمر سلبيا محضا . ولكـن محمدا كان النشاط واللباقة والفصاحة وقوة الخلق مجتمعة . فوجـدت قريش نفسها بإزاء رجل لا كالرجال وخصم ليس كغيره من الخصوم ، فهى إن لم تعاجله عاجلها ، وإن لم تقض عليه قضى عليها . لذلك أخذت تنهج فى مقاومته خطة إيجابيـــة تدرجت فيها تدرجا . فكانت أول الأمر تستهزىء به وبدعوته وبمن اتبعه ، فهو شاعر وساحر ومجنون ، ودعوته إنما هى محض خداع وغرور ، وأتباعه ليسوا إلا أرذالها وسـفلتها ، ثم جعلت تحاول إعجازه ومعاياته . إن يكن صادقا فيما يدعى فليحول جبال مكة جنانا وأنهارا ، أو فليكن له بيت من زخرف ، أو ليرق فى السماء ، أو فليسقط عليهم كسفا ، أو فليأت بالله والملائكة قبيلا . ثم انتقلوا من هذه المعاياه الدالة على قصر عقولهم إلى التعريض له بالمال والسلطان . فلـما أعيتهم فيه الحيل ورأوا وقوف عشـيرته دونه أخذوا يفتنون أصحابه بالأذى

والعذاب ، فمنهم من كان يثبت على رأيه وعقيدته ، ومنهم من كان يفتتن من شدة البلاء .

عند ذلك أمر الرسول أصحابه بالهجرة التي هي آخر ما يلجأ إليه المحق الضعيف في مقاومة المبطل القوى . أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة فهى أرض قديمة الصلة بمكة . وبها ملك نصراني رشيد لا يضام من يلجأ إليه ويحتمى بحماه.

فخرج من مكة في شهر رجب من سنة خمس للنبوة زهاء مائة مسلم ومسلمة، وكلهم جاز البحر الأحمر من الشعيبة إلى بر الحبشة فتلقاهم النجاشي لقاء حسنا وأذن لهم في المقام بأرضه آمنين على دينهم وأنفسهم . وقد أبى أن يخفر ذمته لهم عندما أرسلت إليه قريش في رد اللاجئين إليه . فلما تبدلت الأحوال بالحجاز وعلا شأن الإسلام به جعل هؤلاء المهاجرون يعودون إلى الحجاز وكانت عودة بقيتهم إلى المدينة سنة سبع للهجرة أى بعد أن لبثت بأرض الحبشة نحو خمسة عشر عاما ، وقد جزت الرواية الإسلامية النجاشي عن صنيعه هذا بأن اعتقدت إسلامه ، وبأن النبي ﷺ قد صلى عليه عندما بلغته وفاته .

ولما رأت قريش خروج من خرج إلى الحبشة من أصحاب محمد أرادت أن تحسم مادة الخطر فاجتمعت كلمة ملئها على حبس محمد وعشيرته من بني هاشم والمطلب في بعض شعاب مكة ، وعلى أن يقطعوا كل أسباب الاتصال بينهم وبين جمهور قريش ، وقد انفذت هذا الحكم ، وقضى بنى هاشم والمطلب في الشعب نحو ثلاث سنين قاسوا فيها جهدا جاهدا حتى لقد كان يسمع صوت صغارهم من وراء الشعب وهم يتضورون جوعا. وأخيرا قام في قريش من عطفته عليهم عاطفة الرحم والقرابة فسعى في اخراجهم من الشعب فأخرجوا .

على أن الرسول لم ينعم بتلك الحرية التي سيقت إليه طويلا ، ففي السنة

العاشرة للنبوة أصيب بفقد عمه أبي طالب وزوجه خديجة ، فخلا الميدان من النصير الزائد ، وخلا البيت من الحبيب المؤنس ، وأصبح محمد وجها لوجه أمام عدو حنق عليه كان يترقب فيه الفرصة ، فلما أمكنت استغلها استغلالا . فجعل يأخذ عليه المذاهب ويعزى به السفهاء يتعمدونه بالأذى والهوان .

عند ذلك أخذ الرسول يفكر فيما كان قد أشار به على أصحابه منذ سنين عندما اشتد تحامل قريش عليهم : أخذ يفكر هو أيضا فى الهجرة . لقد دلته تجارب سنوات عشر على أن دعوته توشك أن تذهب بمكة صرخة فى واد ونفخة فى رماد ، وإذا فقيم المقام بواد غير ذى زرع حقيقة ومجازا ؟ فليهاجر ! ذلك ما قر عليه رأيه . ولكن على ألا يتخطى حدود بلاد العرب فهو مبعوث إلى العرب أولا وإلى سائر الناس أخيرا . فليخرج إلى أقرب قرية عربية من مكة : إلى الطائف ، لعل ثقيفا تجيره حتى يبلغ رسالته . ولكن ثقيفا لم تكن أبر به من قريش ، فقد أعرضت عن سماع دعوته ، وضنت عليه بجوارها ، ثم زادت فأغرت به سفهاءها ، فما زالوا يتعقبونه حتى ألجأوه هو ومولاه زيد بن حارثة إلى حائط من حوائط ثقيف وهنا ـ وقد خلا إلى نفسه وربه ـ فاضت أشجانه واعتلجت فى صدره همومه ، فانبعث يناجى ربه « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ! يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ؛ لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ثم نهض من مكانه يريد مكة فلم يدخلها إلا فى جوار سيد من سادتها هو المطعم بن عدى . وكف محمد مؤقتا عن توجيه الدعوة إلى قريش واكتفى بعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج لعل كل قبيلة تصغى إليه فينتقل إليها ويبلغ دعوته فى ظلها وسلطانها . فكانت القبائل ترد عليه بأنه لوكان صادقا لاتبعه قومه ، الا ما كان من أمر أهل يثرب . ففى عام ١١ للنبوة لقى النبى عند العقبة ستة نفر من الخزرج فعرض عليهم الإسلام فآمنوا وصدقوا ، ووعدوه أن ينشروا الدين الجديد فى قومهم . تلك بيعة العقبة الأولى . فلما كان العام القابل وافى الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، لقوا النبى عند العقبة أيضا فبايعوه على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يشرع القتال ، على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب » تلك بيعة العقبة الثانية ، وبعث الرسول معهم صاحبا من أصحابه دينا لبقا فطنا ليفقه القوم فى الدين ، وفى الوقت نفسه ليخبر أحوال يثرب العامة ويسبر غورها وينهى إلى النبى ما يصل إليه من ذلك . ذلك هو مصعب بن عمير . وقد أدى مصعب بن عمير واجبه أحسن أداء وأتمه ، ثم عاد إلى مكة فأطلع الرسول على حال يثرب ومقدار نجاح الدعوة الإسلامية بها . فلما حل موسم الحج وافى مكة جم غفير من الأوس والخزرج ، مسلمهم ومشركهم . فواعد المسلمون منهم رسول الله أن يلقوه عند العقبة ليلا ، وقد لقيه منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، فبايعوا الرسول بيعة العقبة الكبرى المشهورة وهى تقوم على تعهد الأوس والخزرج بالدفاع عن الرسول والحرب من دونه ، يقول الطبرى

« فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم ، على أنا منك وأنت منا ، وعلى أنه من جاءنا من أصحابك أو جئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، وبهذه البيعة أصبح للرسول بيثرب أنصار يؤوونه ويذودون عنه .

* * *

لكى ندرك السبب فى مسارعة الأوس والخزرج الى قبول الدعـــوة الإسلامية ومبايعة الرسول على الدفاع عنه، ينبغى أن نلم بحال يثرب فى السنوات السابقة على الهجرة من الناحيتين الدينية والسياسية ، فمن النـاحية الدينية كانت اليهودية قد حرثت المدينة وأعدت الأنصار لقبول الدعوة الإسلامية ، لأنهم أهـل كتاب منزل ودين مشروع . وكان الأوس والخزرج يلقفـون منهم معنى النبوة والرسالة والوحى ونحو ذلك مـن المصطلحات الدينية . ثم إن اليهود كانوا كدأبهم يتوقعون ظهور نبى منهم يجمع شملهم ويعيد إليهم سلطانهم ويقهر بهم أعداءهم ، وكانوا لا يعـدمون أن يبوحوا بشيء من ذلك لمواطنيهم من الأوس والخزرج . قال ابن اسحق عند كلامه عـلى استجابة الأنصار لدعـوة النبي فى بيعة العقبة الأولى : « وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهـود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعـلم ، وكانوا هم أهـل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم . فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوث الآن ، قد أظل زمانه نتبعه فنقتلـكم معه قتل عاد وإرم .فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا ، والله إنه للنبى الذى توعـدكم به يهود ، فـلا يسبقنـكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليـه بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الإسلام » .

قد يكون تصوير حالة المدينة السياسية قبيل الهجرة أبلغ من تصوير الحالة

الدينية فى فهم قبول الأنصار دعوة النبي والتزامهم الدفاع عنه ببلدهم . لقد كانت الحياة العامة بالمدينة مضطربة أشد الاضطراب من جراء حرب الأوس والخزرج التى سببها ما كان بين الفريقين من دماء وثارات . وكانت الغلبة بوجه عام فى تلك الحرب للخزرج على الأوس ، حتى لقد همت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة أن تجلو عن المدينة جملة ، وأخذت تفاوض قريشا فى أن تأذن لها بالنزول عليها بمكة، ولكن قريشا كانت أحرص من أن تأذن بذلك ، فلما طلبت إليها الأوس أن تحالفها على الخزرج أبت أن تتورط فى شيء من ذلك أيضا . فعادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب وخاصة قريظة والنضير . وكان اليهود قد وقفوا من تلك الحرب موقف الحياد المطلق ، فلما بلغ الأمر الخزرج أرسلت إلى اليهود تحذرهم عاقبة هذا الحلف إن تم ، فلما أكد اليهود أنهم غير محالفى الأوس عادت الخزرج تطلب منهم رهنا أربعين غلاما من غلمانهم يكونون بأيديهم ضمانا لهذا الحياد . فلم يسع اليهود إلا أن يسلموا إليهم الضمان الذى طلبوا . ولكن الخزرج كانت قد قرمت الى أرض قريظة والنضير وكانت أغنى بقاع يثرب فأقبلت تتجنى على اليهود وتخير قريظة والنضير بين أمرين كلاهما شر : فإما أن يجلوا عن يثرب وينزلوا لهم عن أرضهم ، وإما أن تقتل غلمانهم . فلما رأت اليهود أن الخزرج قد لجت فى طغيانها ، وأن حيادها لن يجر إليها خيرا، عند ذلك خرجت من حيادها وحالفت الأوس صراحة ، فقتلت الخزرج الغلمان وعقدت حلفا مع القبيلة اليهودية الثالثة بالمدينة قبيلة بنى قينقاع ، وبذلك استحالت يثرب عسكرين تشحذ فيهما السيوف وتراش النبال استعدادا للواقعة الفاصلة .

وقد وقعت الواقعة الفاصلة فى يوم بعاث الذى كان قبيل الهجرة بنحو خمس سنين . فى ذلك اليوم أديل للأوس وحلفائها من الخزرج وحلفائها ، وقتل

من الفريقين يومئذ عدد كبير من سادات الناس وأشرافهم . جاء في صحيح البخاري عن عائشة : «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم » ويفسر السمهودى هذا الحديث بقوله « ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ، ويأنف أن يدخل في الإسلام » إلى أن يقول « وقد كان بقى معهم من هذا النمط عبد الله بن أبي بن سلول ... وكذلك ابو عامر الراهب ... فشقيا بشرفهما » .

ورأى أهل يثرب غداة يوم بعاث أن الحرب مهلكة النفوس متلفة الأموال، وأنها يشقى بها الغالب والمغلوب جميعا ، وأنه أولى بهم أن يقيموا بيثرب حكومة تزع القوى وتأخذ بناصر الضعيف . وكان عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي قد رأى غدر قومه في الحرب فلم يخض غمارها معهم وامتنع من قتل من كان بيده من غلمان اليهود، ولذلك اتجهت إليه أنظار القوم وهموا أن يملكوه على يثرب، وأقبلوا ينظمون له الخرز ، وكان ذلك شارة الملك عندهم . ولكن يظهر أنه لم تكن هناك رغبة صادقة في تمليكه . أما الأوس فكانت تكره أن يصير الأمر إلى خزرجي مهما تكن فضائله ، وأما الخزرج فقد كبر على كثير من أحيائها أن تولى رجلا وسمها بالغدر وخذلها عند الحرب ، فكان بذلك مسئولا إلى حد ما عن هزيمتها . وأما اليهود فلا شك في أنها كانت تستنكف أن يلي أمرها مشرك ولو كان ابن أبي نفسه .

فلما التقى حجاج الأوس والخزرج الرسول بموسم الحج واطلعوا على سيرته وحالته وجدوا فيه ضالتهم المنشودة ، فهو وحده الرجل الذى تستقيم على يده حالهم المختلة ، وتجتمع على حكومته آراؤهم المختلفة ، هو نبي عربي يتنزل عليه الوحي

من السماء ، وبذلك يحتجون به على اليهود . نعم إنه من الناحية السياسية يعتبر أجنبيا عن يثرب ؛ ولكن حكومته لن تكون أجنبية . أليس الأنصار هم الذين سيكونون عدته ومادته ؟ فأى حكومة ليثرب يمكن أن تفضل هذه الحكومة ؟ إذن فليعدلوا عن تمليك ابن أبى ، وليبايعوا محمدا ، وليكن ذلك فى غيبة ابن أبى ، وليكتموا ذلك الأمر عنه كتمان النبى إياه عن قريش .

تلك كانت الحال المعنوية للأنصار عندما بايعوا النبى بيعاتهم الثلاث بمكة . قال ابن اسحق عند كلامه على العقبة الأولى « . . . وقالوا له « للنبى » إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم . وروى ابن اسحاق أيضا عند كلامه على بيعة العقبة الكبرى « . . . فاعترض القوم أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها . يعنى اليهود ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال فتبسم رسول الله ﷺ . ثم قال بل الدم الدم ! والهدم والهدم ؟ أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » فالمسألة من ناحية الأنصار لاتعدو أن تكون حلفا سياسيا قوامه الفكرة الدينية . أما من ناحية الرسول فلم تكن كذلك . فالرسول إنما كان يريد إذ ذاك بلدا يأمن فيه على دعوته وأصحابه ، وقوما يحمون ظهره حتى يبلغ رسالته . وقد أصبح ذلك مكفولا له بالبيعة الأخيرة ، وإذن فلم يبق إلا الرحيل من مكة إلى المدينة .

* * *

ورأى الرسول اغتنام الوقت فأذن لأصحابه فى الخـــروج إلى يثرب فى أواخر ذى الحجة من السنة الثالثة عشرة للنبوة . فجعلت جماعاتهم عند ما استهل المحرم تخرج من مكة أرسالا وتنزل على الأنصار فى دورهم . فخرج فى نحـــو شهرين زهاء المائتين. وقد أقفرت دور برمتها بسبب الهجرة ، من ذلك دور بنى مظعون وبنى جحش وبنى البكير . قال ابن هشام «فغلقت دار بنى جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة .. وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوما ستدركها النكباء والحوب

ثم قال هذا عمل ابن أخى هذا ، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا » ولم يبق بمكة من المسلمين إلا النبي وأبو بكر وعلى وإلا من كان مفتونا أو محبوسا أو مريضا أو ضعيفا عن الخروج .

وأحست قريش الخطر الذى أصبح يتهددها من جراء تلك الهجرة وذلك الحلف الذى عقده محمد مع أهل يثرب . فأجتمع ملؤهـا فى دار ندوتهـا ليقلب الأمر على وجوهه ويصدر فيه رأيا حاسما . وهنا افترقت بهـا الآراء وتشعبت المذاهب ، فمنهم من رأى أن يحبس محمد حتى يموت ، ومنهم من رأى أن ينفى من البلد ، ومنهم من رأى قتله . والظاهر أن الرأى الأخير هو الذى اجتمعوا عليه آخر الأمر. وإلى هذه القصة كلها يشير القرآن بقوله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» ثم رأوا أن يقتلوه بحيث تمتنع على عشيرته المطالبة بدمه فأمروا فتيانا من بطون قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ويرضى

بنو هاشم بديته.

ولكن رسول الله كان قد نذر بذلك فأسرع الى الخروج خفية من داره الى دار صديقه أبي بكر ، وكان قد أعد عدة السفر إلى المدينة ؛ دليلا وظهرا وخادما وزادا . وخرج الرسول وأبو بكر إلى غار بجبل ثور بقيا به ثلاثة أيام اهتاجت فيها قريش اهتياجا شديدا وجعلت لمن يأتى بالنبي حيا أو ميتا جعلا سنيا. وإلى حادث الغار يشير القرآن بقوله « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن ،إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز ذو انتقام».

توصف الأرض التى بين مكة والمدينة بأنها حزنة وعرة موحشة ، ليس بها ما يرفه عن المسافر فى بلاد العرب من ماء أو خضرة ثم هى يشقها طريقان : إحداهما شرقية محاذية لنجد ويجاوز طولها الثلاثمائة ميل بقليل ، والأخرى غربية محاذية لساحل البحر الأحمر ويقرب طولها من مائتين وخمسين ميلا . وقد آثر الدليل الذى اتخذه أبو بكر هاديا له وللرسول أثناء السفر سلوك الطريق البحرية . غير أنه كان ينحرف يمنة ، ويسرة تضليلا لمن عسى أن ترسله قريش فى إثرهم . فخرج بالجماعة من جبل ثور أسفل مكة فبلغ عسفان وهنا أدرك الجماعة سراقة بن مالك طامعا فى قتل الرسول وأخذ جعل قريش ، ولكنه وجد نفسه أمام أربعة أشداء فكان قصاراه أن نجا بنفسه بعد أن أعطى الرسول وأصحابه موثقا ألا يدل عليهم . ثم سار الدليل بهم إلى أمج فقديد ، فلما قارب بدرا مال بهم يمنة إلى العرج، ثم هبط وادى العقيق الذى يؤدى إلى المدينة . ولكن النبي أمر بأن يكون المسير أولا إلى قباء قرية بنى عمر بن عوف . فبلغها ظهر يوم

الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وذلك بعد مسير ثمانيـة أيام .
وأقام النبي ثلاثة أيام بقباء وثق فيها من حسن استقباله بالمدينـة . فلما كان يوم
الجمعة خرج من قباء إلى المدينة يحف به ملأ بنى النجار . وقد لحقه بقباء على بن
أبى طالب بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من الودائع . ولما
اطمأن الرسول بالمدينة أنفذ إلى مكة من حمل إليه أهل بيته .

* * *

ليس يسيرا على المؤرخ أن يصور مقدار المشقة التى لحقت المهاجرين
الأولين من جراء هجرتهم من وطنهم إلى بلد ناء ومعشر غرباء . لقـد كان أول
مظهر لهـذه المشقة أن تأثروا بجو المدينـة الوخم لأول قدومهم فاعتلت صحتهم
وأصابتهم الحمى وعزاهم داء الحنين إلى وطنهم القديم ، حتى لقدكان بعضهم يهذى
بذلك إذا أخذه دوار الحمى . روى البـلاذرى بإسناده عن عائشـة أم المؤمنين
أنها قالت « لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة مرض المسلمون بها فكان ممن
اشتد به مرضه أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة . فكان أبو بكر يقول فى مرضه :

كل امرىء مصـبح فى أهـــله ... والمـوت أدنى من شراك نعـله

وكان بلال يقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليـلة ... بفخ وحولى أذخر وجليــــل !

وهل أردن يوما ميـاه مجنـــة ... وهل تبدون لى شامة وطفيـل !

وكان عامر بن فهيرة يقول :

لقد وجدت الموت قبـل ذوقه ... إن الجبان حتفـــه من فوقـه

كل امرىء مجاهد بطوقـه ... كالثور يحمى جـــلده بروقه

قال فأخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : اللهم طيب لنا المدينة كما طيبت لنـا

مكة وبارك لنا في مدها وصاعها » .

وتتمثل هذه المشقة كذلك في الفاقة الشديدة التي صار إليها المهاجرون بسبب الهجرة . فقد خلف أكثرهم أمواله بمكة فمدت عليها قريش فاغتصبتها تشفيا من أصحابها. روى صاحب أخبار مكة «إنه قيل للنبي ﷺ يوم الفتح (فتح مكة) ألا تنزل منزلك بالشعب ؟ قال وهل ترك لنا عقيل منزلا . قال وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجروا ومنزل كل من هاجر من بني هاشم ، فقيل لرسول الله ﷺ فانزل في بعض بيوت مكة في غير منزلك فأبى رسول الله ﷺ وقال لا أدخل البيوت ، فلم يزل مضطربا بالحجون ، وكان يأتي المسجد من الحجون » ويروى ابن هشام أن عبد الرحمن بن أبي بكر عدا على مال أبيه بمكة بعد هجرته ، فلما كان يوم بدر خرج عبد الرحمن مع قريش لقتال المسلمين فناداه أبوه : أين مالي ياخبيث ؟

فأجابه عبد الرحمن :

لم يبق غير شكة ويعبوب   وصارم يقتل ضلال الشيب

ويروى ابن هشام كذلك « أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب . أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟ قالوا نعم ! قال فإني جعلت لكم مالي . قال فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ! ربح صهيب ! » ويروى ابن اسحق أنه « لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة ... فلما بلغ بني جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ

ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارا خيرا منها فى الجنـة ؟ قال بلى ! قال فذلك لك . فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، كلمه أبو أحمد فى دارهم فأبطأ عليه رسـول الله ﷺ . فقال الناس لأبى أحمد يا أبا أحمد ! إن رسـول الله ﷺ يكره أن ترجعوا فى شيء من أموالـكم أصيب فى الله عز وجـل ، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ (فيها) ، ومما يدل على شدة فقر المهاجرين لأول عهدهم بالمدينة أن الرسول عندما خرج بهم إلى وقعة بدر فى السنة الثانية للهجرة دعا الله فى رواية الواقـدى فقال : « اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فاغنهم من فضلك » .

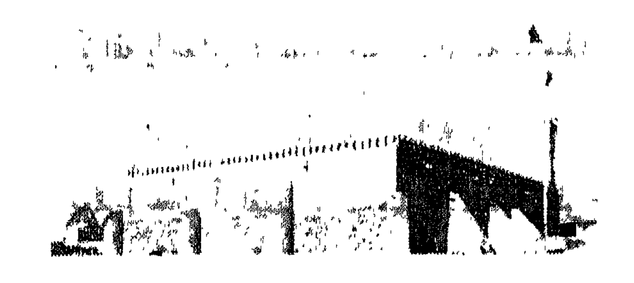
من أجـل تلك الفاقة كان المهاجرون فى السـنوات الأولى من الهجرة عالة على الأنصار . وذلك مظهر ثالث للحوق المشقة بهم - نعم إن الأنصار أكرموا وفادتهم كل الإكرام وواسوهم أتم المواساة ، ولـكن تلك الحال ليس مـن السـهل على كرام النفوس احتمالها . يروى البلاذرى أن النبى عنـدما أراد قسمة غنائم بنى النضير قال للأنصار : « ليست لإخوانـكم من المهاجرين أموال ، فإن شـئتم قسمت هذه وأموالـكم بينـكم وبينهم جميعا ، وإن شـئتم أمسكتم أموالـكم وقسمت هذه فيهم خاصة . فقالوا بل أقسم هذه فيهم وأقسم لهم مـن أموالنا ما شئت . فنزلت الآية (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصـة) فقال أبو بكر : جزاكم الله يا معشر الأنصار خـيرا ، فوالله ما مثلنا ومثلـكم إلا كما قال الغنوى :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت	بنا نعلنـا فى الواطئـين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا	تلاقى الذى يلقون منـا لملت
فـذو المال موفور وكل معصب	إلى حجـرات أدفأت وأظلت

من أجل تلك المشقة التى نالت المهاجرين الأولين فى سبيل الله اعتبر القرآن هجرتهم هجرة إلى الله ورسوله ، ومن أجلها جعل أولئك المهاجرين أرفع طبقات المسلمين درجة وأجزلهم مثوبة ، وفرض مثل هجرتهم على كل مسلم عند خوف الفتنة ولحوق الضيم ، قال تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا : إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » .

* * *

أما بعد فلقد وفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عندما اتخذ هجرة الرسول من مكة إلى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سنيهم وأيامهم ويؤرخون منه أحداثهم ووقائعهم . إنه لا شك قد لحظ فى الهجرة أنها بدء رسوخ الإسلام ، ولكنا نلحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظهرا رائعا لعناصر الحياة القوية النبيلة : حياة الألم والتضحية والإخلاص ؟



مسجد قباء

كيف كان الرسول يسوس أصحابه (١)

لقد تحدث المؤرخون فأكثروا عن قدرة الإسكندر قديما ونابليون حديثا على اختيار الرجال واجتذابهم واصطناعهم ؛ فوصفوا صبر أصحاب الإسكندر على أهوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق أسفاره البعيدة المترامية ؛ وبينوا كيف بلغ من إخلاص أصحاب نابليون له أنهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة إلبا ، لم يسعهم إلا ترك صفوفهم والإنضمام إلى نابليون ، فاضطر لويس الثامن عشر إلى الخروج من فرنسا جملة .

ولكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون مع ذلك أن الإسكندر عندما طوحت به فتوحه إلى أقاصي المشرق وأراد التوغل فى بلاد الهند ، امتنع عليه جنده وحملوه على أن يعود بهم أدراجه ، وأن رجال نابليون لم ينتصروا لقضيته بعد كسرته فى واترلو ، بل إن قائدا من أعظمهم هو المارشال ناى الذى لقبه نابليون بأشجع الشجعان قد اضطرب فى ولائه بين آل بوربون ونابليون ، فجر بذلك على نفسه البوار :

ليت أولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبد الله ! إذا لعلموا أن الرسول العربى قد بز الأولين والآخرين فى اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته فى حياته وبعد مماته . ذلك بأن محمدا لم يكن يتنزل من أصحابه منزلة فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علوا فى الأرض

(١) الثقافة ، العدد ٥٩ ، ١٣ فبراير ١٩٤٠ .

ولكن منزلة الأب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بأدواء النفوس وأساليب علاجها ؛ وكان عليه السلام يروضهم ويسوسهم على هذا الاعتبار وحده ، ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه السلام مع أصحابه بعض ما يوضح هذه الرياضة ويجلو تلك السياسة .

* * *

عندما هاجر الرسول وأصحابه من قريش إلى المدينة رأى أن يحكم أسباب المودة بين المهاجرين والأنصار ، فعمد إلى المؤاخاة بين الفريقين ، فكان يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، مرتبا على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون فى الحياة ، والتوارث بعد الموت . وقد ظل التوارث جاريا على هذا النظام إلى أن شرعت أحكام الميراث ، فصار التوارث يجرى على مقتضاها .

إلا أن فريقا من أهل المدينة يتزعمهم عبد الله بن أبي وقفوا من الدعوة الإسلامية وصاحبها موقف العناد والمعارضة ، ونظروا إلى الرسول والمهاجرين نظرهم إلى قوم دخلوا عليهم بلدهم وزاحموهم فيه ، واستبدوا به دونهم ، فكانوا يتطلعون إلى الإفلات من النظام الجديد والعود إلى الحال السابقة بالمدينة .

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن وعرفتهم السيرة . وقد لقى الرسول منهم عنتا شديدا ، ولكنه كان يداريهم ويحتاط منهم فى أناة ورفق يستثيران منتهى الإعجاب ! من ذلك ما حدث فى غزوة بنى المصطلق سنة ٦ للهجرة . فإنه لما فرغ الرسول من قتال بنى المصطلق أقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه ويسقون ؛ فازدحم على الماء واقتتل عليه رجلان أحدهما يقال له جهجاه الغفارى كان أجيرا لعمر بن الخطاب ، ويقال للآخر سنان بن وبرة الجهنى كان حليفا للأنصار ، وصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! فغضب عند ذلك عبد الله بن أبي ،

وطفق يلوم من كان حاضرا من قومه لأنهم أحلوا المهاجرين ديارهم ؛ ولج به الغضب حتى قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وهي المقالة التي سجلها القرآن الكريم . وبلغت مقالة ابن أبي رسول الله . فاغتم لذلك غما شديدا ؛ وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن أبي ، فأجابه الرسول : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ » ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الأمر أمر من فوره بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن من عادته أن يسير فيها . وراح عليه السلام وأصحابه يطوون المراحل ويصلون النهار بالليل سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة ؛ وإذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوهها . فهذا عبد الله إبن أبي قد أتى إلى الرسول يحلف له أنه ما قال ما بلغه عنه ، وهذا ابنه يطالب إلى النبي إن كان لا بد آمراً بقتل أبيه أن يتولى هو ، أي الإبن ، قتله ، فيقول له الرسول : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » وهؤلاء رهط عبد الله بن أبي قد استخذوا لسلوك ابن أبي ، وأصبحوا كلما أحدث حدثا هم الذين يعنفونه ويؤنبونه .

هنالك أقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته» فقال عمر : « لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري » .

* * *

وإلى القارىء مثلا آخر قد يكون أبلغ مما تقدم في بيان ما نحن بصدده .

رووا أنه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى أكثر من كان معه أن الرسول أعطى في هذا العهد أكثر مما أخذ ، فهم لم يدخلوا مكة في عامهم ذلك بل سيعودون من حيث أتوا ، وقد قبل الرسول أن يرد على قريش كل من أتى

إليه منها بغير إذن وليه . وأن لا ترد إليه قريش من يأتى إليها من مع محمد ، وفوق ذلك قد رد الرسول إلى قريش أبا جندل بن سهيل بن عمرو، وهو رجل مسلم انفلت إلى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح ، وساور الناس غم شديد أشرف بهم على الهلاك حتى أنهم عند ما أمرهم النبي أن ينحروا بدنهم ويحلقوا رؤوسهم لم يطعه منهم رجل واحد . فدخل الرسول على زوجه أم سلمة ، وذكر لها ما لقى من الناس ، فقالت له ... أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ؛ فلما رأى القوم ذلك تواثبوا ينحرون ويحلقون .

وفى رواية ابن اسحق عن ابن عباس أنه حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون. فقال رسول الله ﷺ : « يرحم المحلقين » قالوا والمقصرين يارسول الله . قال «يرحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يارسول الله. قال : «والمقصرين» فقالوا يارسول الله ، فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا ».

* * *

ويروون أنه كان عليه السلام قد خص المؤلفة قلوبهم من قريش وقبائل العرب من قبائل هوازن بعطايا جسام لم يعط مثلها أحداً من الأنصار ، فوجد الأنصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه ، ودخل عليه سعد بن عبادة وأبلغه رأى قومه ، فقال له الرسول : « فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ » قال : ما أنا إلا رجل من قومى قال « فاجمع لى قومك فى الحظيرة » فلما جمعهم سعد أتاهم رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يامعشر الأنصار ! لقد بلغتني عنكم وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ! ألم آتكم

ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ ».

قالوا : بل الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : « ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ » .

قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألاترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحابكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

* * *

من هذه المثل تتبين الأسس التى كانت تقوم عليها سياسة الرسول أصحابه . كانت تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق ، بذلك كان عليه السلام يقتاد العصى ، ويتألف النافر ، ويحمل المحسن على أن يزداد إحسانا . على أن الأمر لم يكن مجرد تأليف وحلم ورفق ، بل كان من وراء ذلك كله الأسوة الحسنة والروح المتدفق والقلب الرحيم ، والخلق العظيم ، والعلم بطبائع النفوس وأسرارها الذى لا يدرك كنهه ، ولا يسبر غوره ؟

من ذكريات الحج (١)

أما بعد ، فقد سافرت كثيرا ، وطوفت فى الآفاق شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ؛ فكنت فى كل أسفارى السابقة أشعر ، من شدة تعلق بأهل بيتى وأولادى وخواص شئونى ، كأنى غادرت قلبى ورائى ، فكنت دائم التلفت كثير التذكر لمن خلفت وما خلفت . ولكنى عندما يسر الله لى العام الماضى حج بيته العتيق ، وزيارة قبر نبيه الكريم ، كان شأنى عجبا من العجب ! فقد شعرت كأن قلبى أمامى ، إذا صح هذا التعبير ، فلا تلفت إلى الوراء . ولا تذكر لأهل ولا ولد ، ولا شئون خاصة ، ولكن توجه إلى الأمام ، واندفاع ، بل انجذاب نحو الغاية التى تركت من أجلها من أحب وما أحب . بل لقد أنسيت نفسى ، وكنت مريضا موعوكا ، وكان الطبيب قد رسم لى بما أتداوى به ، فنسيت الداء والدواء ، وكان الخير والحمد لله فى ذلك النسيان .

* * *

سارت بنا السفينة تشق عباب البحر متياسرة نحو المشرق ، وما هى إلا أن تراءت سواحل الحجاز ، ورفعت لنا قمم جباله ، حتى عرا الركب نوع من الوجد والهيام يعرفه العشاق المعاميد ، ويعرفه المقربون الواصلون من الصوفية .

وحاذت بنا السفينة رابغا ، فأذن مؤذنها أن أحرموا أيها الحجاج ، فما هى إلا سويعات قلائل حتى خيل إلى أن أهل السفينة قد استحالوا ملائكة أطهارا :

---

(١) الرسالة عدد ١٠٨ ، ٢ مايو ١٩٣٩ .

أشباح قد اشتملت عليها ثياب بيض ساذجة ، ونفوس مطمئنة راضية ، ووجوه وضيئة مستبشرة ، وألسنة بالتلبية والدعاء منطلقة لاهجة . وكان لذلك المنظر فى الركب جمال أى جمال ، فأما الشيب فقد خالط فيهم وقار السن جمال التقى فزادهم روعة ومهابة ، وأما الشباب فقد امتزج فيهم برد اليقين بحرارة الصبا ، فعلتهم مسحة من التوقر والاطمئنان اللطيف !

* * *

وما برح الركب على تلك الحال حتى بلغنا جدة واستقلتنا السيارات نؤم مكة أم القرى . فبلغناها فى الهزيع الثانى من الليل ، دون أن نشعر بتعب أو نحس نصبا ، على بعد الشقة ، واتصال الحركة ، وامتناع النوم إلا غراراً فوق متن السفينة أو تهويما على ظهر السيارة . وراح صحبى وقد شارفنا البلد الأمين ، يتذاكرون الحديبية ، وذا طوى ، وغار حراء ، وغار ثور ، وغير ذلك من المعاهد التى أثارت فى أذهاننا ذكريات الإسلام إبان ضعفه ونأنأته ، وذكريات ذلك النضال العظيم الذى كان بين محمد وقريش ، بين الإسلام الهادى والوثنية الضالة ، بين الحق الأبلج والباطل اللجلج ، نعم وذكرى ما احتمله الرسول وعصابته القليلة فى سبيل الدعوة ، من تكذيب ، واضطهاد ، وعدوان ، وانزعاج آخر الأمر عن الأهل والوطن والمال .

وبلغنا النزل الذى أعد لمقامنا بأعلى مكة ، فقذفنا فيه بمتاعنا ، ثم أسرعنا نؤم الحرم لنطوف بالكعبة ونسعى بين الصفا والمروة . وإن أنس لا أنس مشهدنا وقد انتظمنا موكبا واحداً وأخذنا ننحدر من المعلاة فى جوف الليل البهيم ونسير رويدا رويدا ، ومطوفنا بين أيدينا يهتف ملبيا بصوته الأجش ، فنردد نحن التلبية بأصوات منبعثة من أعماق قلوبنا ، فتتجاوب بأصدائها جنبات

الطرق وتمضى صعداً فى السماء . لقد كان المشهد رهيبا رائعا ، ومنه عرفت كيف تسمو الروحانية فى الإنسان على المادية متى استغرقته الفكرة السامية وتولاه الإيمان العميق .

ثم يقف المطوف ويقف الموكب لوقوفه ، فإذا بنا قبالة باب عظيم من أبواب الحرم الكثيرة . وتحتبس الأنفاس ، وتجب القلوب ، وتمتد الأبصار ، كأنما تريد أن تلقف بنظرة واحدة منظر ذلك المسجد الرحب الذى كان يضم فى تلك الساعة من الليل عشرات الألوف من الطائفين والقائمين والركع السجود . وكنت قد قرأت فى بعض الكتب وصف الحرم المكى فلم يشق على أن أتبين معالمه لأول مثولى فيه . فهذه الكعبة مؤتزرة بالسواد ومحتلة قرارة المسجد ووسطه . وهذا الحجر الأسود يتزاحم الناس على استلامه ، وهذا حجر اسمعيل ، وهذا المطاف من حول الكعبة يتدافع الطائفون فيه تدافعا ، وهذا مقام إبراهيم ، وتلك بئر زمزم يردها الطائفون ويشربون منها عللا بعد نهل . وهذا سائر المسجد من حول ذلك كله . والمسجد فى جملته مسقوفة حواشيه ، وأما سائره فسقفه السماء وفرشه الحصباء ، وتطل عليه جبال أبى قبيس وقعيقعان والصفا والمروة .

واهاً لك بقعة عجيبة قد احتشدت فيها قوى الطبيعة احتشاداً ، واحتفلت فيها مظاهرها الرائعة احتفالا ! قد تمثلت فيها السماء بنجومها وكواكبها ، والأرض بسهلها وجبلها ، والجو بأحواله المختلفة وتقلباته المتباينة ، فآناً حر لافح ، وآناً برد قارس ، وآونة جفاف تتقلص منه الشفاه ، وأخرى سيول دافعة تنحط من أعالى الجبال وتستقر حول الكعبة نفسها ، وآناً سماء مصحية وجو طلق ، وآناً سحاب مركوم ، ورعد مجلجل وبرق خاطف .

كم للتعبد فى هـذه البقعة بعينها من معانى التوجه المباشر إلى الواحد القهـار المسخر لقوى الطبيعة ، والمصرف لها على هـــذا النحو الذى لا يحتمل جدلا ولا مراء ! وكفى بهذا التعبد باعثا للعبد على الإنابة والإخبات والخشوع ، وكفى به مشعراً لقلبـه بحقارة الإنسان وضعفه وعجزه ، وبأنه إنما هو ذرة فى محيط هذا الوجود الذى لا يسبر الوهم غوره ، ولا يدرك الخيال مداه . هنا يجـــد الإنسان نفسه وجها لوجه أمام ما يعرف فى الفن الرفيع والأدب العالى بالعظيم والجليل حسا ومعنى .

* * *

إذا كان الحرم المكى يوحي إلى النفس معنى ما هو قوى ورائع وجليـل ، فإن للوقوف بعرفة — وهو أهم مناسك الحج — وحيا آخر ومغزى عظيم الشأن .

وعرفات جبل يبعد عن مكة بنحو عشرين كيلو متراً . ويشرف على هضبة متراميـــة الأطراف ، ينزلها الحجيج فى مضاربهم وخيامهم ، معهم أزوادهم ورواحلهم وسياراتهم التى تقلهم . فإذا كان عصر يوم الوقوف بعرفة أخـــذ الحجاج يخرجون من خيامهم فيصعدون فى الجبل ويدعون الله ويضرعون إليه ، ويستغفرونه لذنوبهم وخطاياهم ، ثم يعودون وقـــد طفلت الشمس للغروب مطمئنين واثقين من أن ذنوبهم حطت عنهم وأنهم استقبلوا صفحة جديدة من حياتهم بيضاء يرجون ألا يكتب لهم فيها إلا كل ما هو خير لهم . ولقـد وقفت بعرفة مع الواقفين ، ودعوت الله مع الداعين، وأشـــهد أن المنظر رائع ، بل هائل ! وأى منظر أشد هولا من أن ترى نفسك على ساحل بحر ليس من الماء ولـكن من خلائق يموج بعضها فى بعض ، فتحس لها همهمـة البحر المحيط أو

الجيش اللهام ؟ ومع ذلك فكل ملق السلاح ، وكل مقر بالضعف ، معترف بالعبودية ، وكل قد تجرد من زخرف الدنيا وباطلها ، فلا فاضل ولا مفضول ، ولا سيد ولا مسود ، ولا رفيع ولا وضيع . لقد جاءوا الله كما خلقهم ، وكما يقبضهم ، وكما ينشئهم النشأة الآخرى . لقد ردوا أنفسهم فى ذلك اليوم المشهود إلى الأصول التى يتساوى فيها الناس جميعا ، وعلموا أن ما سواها متاع الغرور .

* * *

وإذا كان الحج بركنيه العظيمين من طواف بالكعبة ووقوف بعرفة يوحى معانى الجلال والبساطة ، فإن فى الحجاز مشهدا ثالثا ليس من الحج ولم يفترضه الشارع على الناس ، ولكن شهوده واجب على المسلم فى شرعة الذوق السليم على أقل تقدير . ذلك زيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة . ولقد قصدنا الزيارة بعد أن قضينا مناسك حجنا ، وكنت طوال الطريق من مكة إلى المدينة يهزنى شوق يختلف عن ذلك الذى كانت تضطرم به جوانحى عند توجهنا إلى مكة . لقد كان الشوق الأول شوقا إلى المجهول غير المعلوم إذا صح هذا التعبير . أما الثانى فكان شوقا إلى المعلوم غير المجهول ، إلى إنسان أثير حبيب .

ولقد صدق من أطلق هذا الوصف الجميل على الثاوى بالمدينة عليه السلام ، فهو حبيب إلى الله الذى اصطفاه لتبليغ رسالته ، وهو حبيب إلى الإنسانية بما أسدى إليها من صنيع باق على الزمان .

شارفنا المدينة فتواردت على الذاكرة أحداث ذلك البلد الذى يعد فى مقدمة البلدان التى أثرت فى تاريخ العالم أبلغ التأثير . ألا إنه إذا عدت أثينا عظيمة بما بعثت من نهضة فكرية وفلسفية رائعة ، وعدت روما عظيمة بما بعثت فى عالم السياسة من دولة فخمة ، فإن المدينة عظيمة بالأمرين جميعا ،

وكفاها فخراً أنها مهد المدنية الإسلامية والدولة العربية، ومثوى محمد بن عبد الله.

وطفقنا نتجول فى خطط المدينة وطرقها الضيقة الملتوية ونتنشق فيها ريح القدم وعظمة الماضى ونتعرف معالمها ومعاهدها . هنا بركت ناقة الرسول لأول قدومه المدينة ، هناك السنح الذى نزله أبو بكر ، تلك آطام اليهود ، هذا أثر الخندق ، ذلك جبل أحد ، تلك سقيفة بنى ساعدة ، هذا البقيع ، وهذا مهوى الأفئدة ومحط الرحال ، هذا مسجد محمد بن عبد الله وموضع قبره الشريف . ألا لقد رأيت فى أسفارى قبور كثير من عظماء الشرق والغرب ، وأشهد أنى لم يأخذنى شىء من الرهبة والهيبة التى أخذتنى عندما وقفت حيال قبر الرسول العربى . إن عظمة أولئك العظماء محدودة مقيدة بقيود الزمان والمكان . أما عظمة محمد فطلقة ليس للمكان ولا للزمان عليها سبيل . أولئك وردوا وشلا تحت أقدامهم وفى متناول أيديهم ، أما محمد فورد بحر الحقيقة الطامى وسر الوجود الخافى فنهل وعل ، أولئك بادوا وأصبحوا أحاديث ، أما محمد فاستحال قوة فى هذا العالم كقوى الطبيعة باقية مابقيت الأرض والسماء .

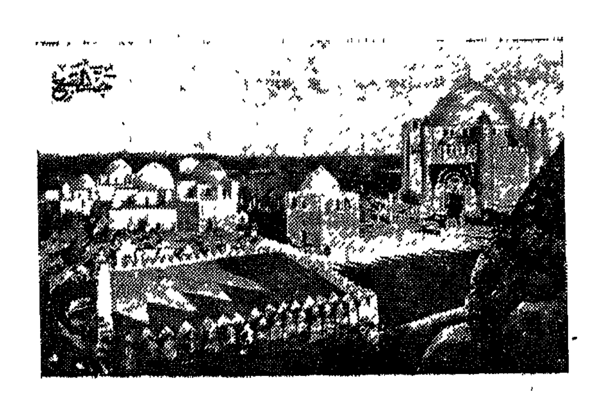
والمسجد النبوى تحفة فنية رائعة تعرف فيه خفة الروح والوقار والهيبة . وقد لزمه الطابع الذى كان له على عهد الرسول ، طابع منزل الرسول ، ومجلس الرسول ، ومسجد الرسول ؛ فأنت إذا استقر بك المقام فيه أحسست أنك فى منزل صديق حميم أو أخ كريم . كل شىء فيه يبعث فيك الأنس وينفى عنك الوحشة ، فأنت فى منزلك ، على حد تعبيرنا المألوف ؛ تلك السقوف العالية تتدلى منها الثريات الوهاجة ، وتلك البسط الوثيرة ، وتلك النقوش المذهبة تغشى الجدران ، وتلك المحاريب الأثرية النفيسة ، وتلك القبة الذاهبة فى السماء ، كل ذلك فيه معنى اللطف ومعنى الأنس ، وإن شئت فقل فيه معنى الإنسان

الصادق والإنسانيـــة الصحيحة . الحرم المكى يريك معنى الإله والألوهية ، والحرم المدنى يريك معنى الإنسان والإنسانية .

كل ما فى المدينـــة جميل : جمال فى الطبيعة تعرفه فى الماء والزرع والسهل والجبـل ، وجمال فى الخلق تعرفه فى دعة أهل المدينـة ، الذين رضى أسـلافهم الأنصار برسول الله قسما وحظا فى حياته وبعد مماته ، ثم جمال ثالث فى المسجد وفى الذكرى التى يثيرها ، جمال فى جمال فى جمال .

* * *

أما بعد فإن الجلال بمكة ، والبساطة بعرفة ، والجمال بالمدينة . ولست أعرف قطرا آخر أجمع لهذه المعانى الثلاثة من الحجاز ؟



رسالة الحج[1]

تأليف الأستاذ ح . ع .[2] (دبلوماسى)

الأستاذ ح . ع من خيرة رجالنا العاملين فى السلك الدبلوماسى ، مثـل مصر ولا يزال يمثلها فى ممالك الشرق العربى ، فأفاد من ذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية فى الوقت الحاضر ، وأنشأ لنفسه بخلقه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب وساستهم وأدبائهم وعلمائهم . وإنى لسعيد بأن أقول إنى اطلعت على ذلك بنفسى فى بعض تجوالى فى ربوع الشرقين الأدنى والأوسط .

وقد واتى الحظ الأستاذ ح . ع . وساعفته ظروف عمله الدبلوماسى فأدى فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس فى أثنائها على هدى التاريخ وفى ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامى الجليل المعدود خامس أركان الإسلام. ثم صاغ خلاصة دراسته فى رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة ، يعرف فيها من يطالعها بلاغة الأديب ، وفكرة الفيلسوف ، ونزعة المصلح المؤمن برسالة الإسلام وبإمكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسننهم الأولى . فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن « الحج » ومن خير ما أخرجته المطابع المصرية فى هذا العام .

* * *

---

(١) نشرت بالعدد ١٢١ من الرسالة (السنة الثالثة) بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥ .

(٢) هو المرحوم الطيب الذكر الاستاذ حافظ عامر بك .

ينعى الأستاذ على المسلمين فى صدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد من الناحية العملية الحكمة التى قصد إليها الشارع من تشريعه . فهو يقول :

« أما بعد فقد أديت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجيج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وحادثت كبارهم وذوى العقول منهم ، ودرست بفكرى وعينى وقلبى ، فكنت أرى وأفكر وأبحث وكنت أستلهم كل شىء حكمته وكل مكان وحيه ، وكل عمل سره ، فظهر لى أخيرا أن الحج لا يزال مجهولا فى حقيقته ، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملا فرديا محضا ، ولا يعرفون إلا ظاهراً من الأمر .. »

* * *

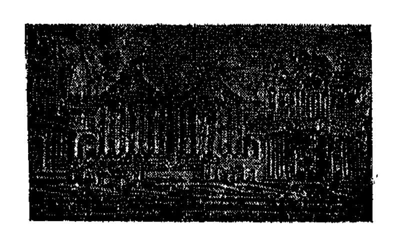
والرسالة تنقسم ثلاثة أقسام ، أولها فى أن الإسلام دين إنسانى عام ، وأنه دين المساواة التى تظهر فى شكلها المادى المحسوس فى الحج ، وأن الكعبة من العالم الإسلامى بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه إليها فى الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثانى يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفيل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذى دعا إليه الفلاسفة أمثال روسو ولكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفى مزايا نظام الكشافة ويربى عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الإسلامى فى أسمى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمرا عاما لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة إسلامية على أن تحج كل عام نفرا من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأى والمشورة ، والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها مما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم » .

على أن الجديد الممتع فى هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التى عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التى خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقيفية لا مجال لتفكير العقل البشرى فيها ؛ فالأستاذ يتناولها منسكا منسكا : من الإحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعى بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمى الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدى ، إلى إستلام الحجر الأسود والإهلال بالتلبية ، فإذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حكمتها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير .

* * *

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الإسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجيا الأخذ بها حتى ينتفع المسلمون بنظام الحج .

وإن الذى يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتمنى أمرين : أن تجد دعوة الأستاذ ح.ع . من أولى الرأى فى العالم الإسلامى آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، وألا يحرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من نفثات يراعه ، فهو يراع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة ؟



عمر بن الخطاب فى عام الرمادة[1]

(١)

عرف الناس عمر بن الخطاب فى الجاهلية فتى فى خلقه جفاء وشدة . وعرفوه فى عهد النبوة صحابيا من أمضى الصحابة عزيمة ، وأغلظهم على معاندى الدعوة الإسلامية من الكفار والمنافقين ؛ وعرفوه فى خلافته فاتحا عظيما ومنظما قديرا . ولكن الناس لم يعرفوا عمر راعيا رءوفا برعيته كل الرأفة ، وأبا لأمته شفيقا عليها كل الشفقة ؛ وإن يكونوا قد فعلوا فهم لم يعرفوه من هذه الناحية الإنسانية حق معرفته ، ولا قدروه حق قدره .

ونحن نجلو على القراء من تاريخ الفاروق صحيفة بيضاء مشرقة ، تصوره لنا حاكما شديد الشعور بالمسئولية عمن ألقيت إليه مقاليد حكمهم ، حتى لقد أنزلهم من نفسه منزلة دونها منزلة النفس والولد والأهل والعشيرة . تلك صحيفة سيرته فى الشدة التى نزلت بجزيرة العرب فى العام المعروف بعام الرمادة .

ويسمى أخباريو العرب بعام الرمادة : العام الذى بدأ من منصرف الناس من الحج فى سنة ١٨ هـ ، وامتد إلى موسم الحج من سنة ١٩ هـ ؛ وسمى بعام الرمادة لأن الأرض كلها صارت سوداء فشبهت لذلك بالرماد .

* * *

ولقد دهم عمر بن الخطاب من أمر الناس فى ذلك العام شىء عظيم . فنظرة

---

(١) الثقافة ، العدد ٢٥٩ ، ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

الحاكم الإنسانى الشفيق كانت تمثل له هول القحط وفتك الجوع بالناس ؛ ونظرة السياسى الرشيد كانت تؤدى إليه أن قلب الدولة العربية الناهضة يوشك أن تلم به سكتة يكون فيها انهيار تلك الدولة وذهابها .

ولكن عمر تجرد للأمر تجردا . وعلم أن فى إنكار الذات ، ومضاء العزيمة ، وسرعة المبادرة ما يكفل تهوين الشدة على أقل تقدير . فأنشأ يأخذ الناس بالاقتصاد فى معيشتهم ، وجعل يخلطهم بنفسه ويعيش كواحد منهم . فكان يطعمهم أول الأمر الثريد من الخبز مأدوما بالزيت ، وربما نحر لهم فى أيام معينة جزورا يجعل لحمها على الثريد ، ويأكل مع الناس مما يأكلون . ويروى أنهم غرفوا له ذات مرة أطايب الجزور ، فإذا قدد من سنام وكبد ؛ فقال : بخ ! بخ ! بئس الوالى أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها ، ، وأمر مولاه بأن يرفع هذا الطعام ويحمله إلى أهل بيت مقفرين ، وأن يأتيه هو بخبز وزيت .

على أنه لم يلبث أمام اشتداد الحال أن حرم على نفسه وأهل بيته لذائذ العيش من سمن ولحم وفاكهة . ولذلك قصص يروونها عنه ؛ منها أنه أتى مرة بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلا بذويا فأكل معه . فجعل البدوى يتتبع الودك فى جانب الصفحة ، فقال له عمر : إنك مقفر من الودك ؟ فقال : أجل ! ما أكلت سمنا ولا زيتا ، ولا رأيت آكلا له مذ كذا وكذا قبل اليوم . فحلف عمر لا يذوق لحما ولا سمنا حتى يحيا الناس . وكان بطنه ربما تقرقر من أكل الزيت المطبوخ على النار ، فكان يقول : تقرقر ! لا والله لا تأكله حتى يأكله الناس . وكانت لابنه عبيد الله بهمة ، فجعلها فى التنور ، فخرج ريحها على عمر وهو فى نفر من أصحابه ، فقال : ما أظن أحدا من أهلى اجترأ على هذا ! وقال لمولاه أسلم : اذهب فانظر من أين هذه الريح ، قال : فوجدت البهمة فى التنور ،

فقال عبيد الله : استر على سترك الله ! فقلت : قد عرف حين أرسلني أنى لا أكذبه . قال : فاستخرجها ، ثم جاء فوضعها بين يديه واعتذر إليه من أن يكون علم بها . وقال : أنا كنت اشتريتها لابنى فقرم إلى اللحم ، فذبحت له وشويت .

ونظر يوما إلى بطيخة فى يد بعض ولده ، فقال : بخ ! بخ ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى؟ فخرج الصبي هاربا وبكى ، فسأل عمر عن أمر تلك البطيخة فقيل له : اشتريت بكف من نوى . فسكت عمر .

* * *

وتشتد المجاعة فى داخل الجزيرة ويهجم الشتاء ، وتعصف ريح الموت بأرجائها فتتحمل القبائل من بواديها إلى الحواضر عامة ، والمدينة خاصة ، على عادة أهل البدو فى النوائب والأزمات ، فأنزلهم عمر بأرضها فيما بين رأس الثنية ، إلى بنى حارثة ، إلى بنى عبد الأشهل ، إلى البقيع ، إلى بنى قريظة . وأنزل منهم طائفة ببنى سلمة ؛ وكان عمر يتعاهدهم بنفسه . قال أبو هريرة : يرحم الله ابن حنتمة ، فقد رأيته عام الرمادة وقد حمل على ظهره جرابين ؛ وفى يده عكة زيت ، وإنه ليعتقب هو وأسلم . فلما رآنى قال : من أين يا أبا هر؟ قلت قريبا ، قال : كن معنا . فحملنا ذلك حتى انتهينا إلى حرم نحو عشرين بيتا من محارب . فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا الجهد ! وأخرجوا لنا جلد ميتة مشويا كانوا يأكلونه ، ورمة عظام مسحوقة كانوا يستفونها . فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم ائتزر ، فما زال يطبخ لهم ويطعمهم حتى شبعوا . ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبعرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم كساهم وكان يختلف إليهم حتى رفع الله ذلك .

ورأى عمر أن الأقطار المفتوحة إن يكن فيها خير فذلك وقته . فكتب إلى عماله عليها يستعينهم ويستنجدهم . وإلى القارىء نص المراسلة التى دارت بينه فى هذا الشأن وبين عمرو بن العاص عامله على مصر : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاص: سلام عليك . أفتراني هالكا ومن قبلى ، وتعيش أنت ومن قبلك ، فياغوثاه ! ثم ياغوثاه » . فكتب إليه عمرو : « سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الغوث . فلأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عنــــدى والسلام » . ويظهر أن عاملى الشام والعراق ردا بمثل هــــذا المعنى . فأما أمداد مصر فوردت فى البحر الأحمر فى عشرين سفينة تحمل الدقيـق والودك . وبعث عمرو فى البر بألف بعير تحمل الدقيق والزيت . وبعث بخمسة آلاف كساء . وبعث معاوية من الشام بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق ، وثلاثة آلاف عباءة . وبعث سعد من العراق بألف بعير عليها الدقيق . وندب عمر من ثقات رجاله من استقبل المدد الوارد فى البر من مصر والشام والعراق ومال به إلى البادية . وأمره أن يجعـل الظروف، أى الأوعية ، لحفا يلبسـونها ، وأن ينحر لهم الإبل يأكلون من لحومها ويحتملون من ودكها . وبعث إلى الجار ، وكانت إذ ذاك مرفأ المدينـة ، من حمل ما بعث عمرو فى البحر إلى تهامة فأطعمه الناس .

وقـــد نظم عمر توزيع الطعام على الناس توزيعا ساذجا ، ولكنه واف بالغرض المطلوب . فكون لجنة تتولى ذلك مؤلفـة من أربعة نفر ، هم : ابن أخت النمر ، والمسور بن مخرمة ، وعبـد الرحمن بن عبد القارى ، وعبـد الله بن عتبة بن مسعود . وكان كل رجل من هؤلاء الأربعة على ناحية من المدينة . واتخـذ عمر موائد عامة يحضرها من شاء ، وينحر لها كل يوم من أيام معلومة

عشرون جزورا من جزر بعث بها عمرو من مصر . ومن لم يحضر العشاء العام من العيالات والصبيان والمرضى أرسل إليهم طعامهم فى منازلهم . هذا فى الأيام التى يباح فيها أكل اللحم . أما فى الأيام الأخر : فكان عمر يأمر بالزيت فيصير فى القدور الكبار على النار حتى يذهب حره ، ثم يثرد الخبز ويؤدم بذلك الزيت . وكان منادى عمر ينادى : من أحب أن يحضر طعامنا فيأكل فليفعل . ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فيأخذ !

وكان النفر الذين سمينا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر فأخبروه ما كانوا فيه. فسألهم عمر ليلة وقد تعشى الناس : أحصوا من تعشى عندنا ! فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل ، وأحصوا من أرسل إليهم الطعام فى منازلهم فوجدوا أربعين ألفا . ثم أحصوهم بعد ليال فوجدوا من تعشى عند عمر عشرة آلاف ، ووجد الآخرون خمسين ألفا .

* * *

غير أن ذلك الجهد كله لم يزد على أن خفف من وطأة المجاعة ؛ فلقد كان متعذرا أن ينقل إلى الجزيرة فى تلك الأيام من المؤن ما يكفى لسد حاجة أهلها دفعة واحدة ، كما كان مستحيلا ألا تتأثر الصحة العامة بهذا النوع من الطعام الخشن الجشب، الذى اضطر إليه الناس اضطرارا ، وحملوا عليه حملا. فوقع الفناء فى الناس ، حتى قيل إنه هلك فى تلك السنة من العرب الذين نزلوا بأرض المدينة نحو ثلثيهم . وكانوا يزيدون على مائة ألف . هذا عدا من هلك فى داخل الجزيرة .. وكان عمر يأتى بنفسه فيصلى على الموتى . ولقد رؤى مرة وهو يصلى على عشرين جميعا .

فلما تناهت الشدة إلى تلك الحال لم يعى عمر بالأمر ولا ضاق به ذرعا . بل نهج فى تفريج الكرب وتهوين الخطب منهجا جديدا هداه إليه فكره السليم وقلبه الكبير؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عمر بن الخطاب في عام الرمادة[1]

(٢)

لقد كان عمر بن الخطاب أكبر قلبا وأصح تفكيرا من أن يقف فى مكافحة الشدة التى نزلت بالجزيرة عام الرمادة عند الناحية المادية وحدها . لقد علم أن الناس اذا صار أمر بطونهم شغلهم الشاغل ، وهمهم الناصب ، فربما انقلبوا سباعا عادية وذئابا ضارية يأكل بعضهم لحم بعض ، كما وقع عند بعض الأمم فى مثل تلك الحال . فينبغى إذا أن يعصموا من الكفر والهلاك ، أو من التدهور والانحطاط بعاصم الدين ووازع العقيدة . ينبغى ، وقد خوت بطونهم ، أن تعمر قلوبهم بذكر الله ، وأن يتوجهوا إليه سبحانه فى الشدة كما يتوجهون إليه فى الرخاء . ولعمر الحق! لولم يكن من وراء ذلك إلا أن يبرءوا إلى خالقهم وإلى أنفسهم من معرة الفزع والهلع ، ويستقبلوا الموت راضية نفوسهم ، مطمئنة قلوبهم ، لكفى ؛ فكيف والصبر على المحن والشدائد من صفات المتقين دلائل الايمان الصادق الصحيح ! !

ومن ثم جرد عمر لمنازلة ما حل بالناس من آفات الجوع والعرى والمرض قوة الدين ووسائلها من دعاء وصلاة وابتهال وأخذ بالصبر على ابتلاء الله وتمحيصه . وهى نفس القوة التى نازل بها من قبل ومن بعد عوامل الفساد الاجتماعى والاضمحلال السياسى فى أملاك الفرس والروم .

* * *

(١) الثقافة ، العدد ٢٦٠ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

وبدأ عمر بنفسه على عادته فى المنهج الجديد الذى نهجه والخطة التى اختطها، فكما جعل نفسه المثل والقدوة فى الاقتصاد وعفة النفس ، فكذلك أحب أن يكون المثل والقدوة فى صحة التدين وصدق التضرع إلى من بيده الأمر كله .

روى الواقدى بإسناده إلى ابن عمر قال : « أحدث عمر فى زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله من قبل . كان يصلى بالناس العشاء ، ثم يدخل إلى بيته فلا يزال يصلى إلى آخر الليل . ثم يخرج فيأتى الأنقاب فيطوف عليها ، وإنى لأسمعه ليلة فى السحر وهو يقول : اللهم لاتجعل هلاك أمة محمد على يدى وفى ولايتى ».

وحدث ابن سعد بإسناده إلى من رأى عمر عام الرمادة قال : « قال رأيت عمر رضى الله تعالى عنه يصلى فى جوف الليل فى مسجد رسول الله ﷺ عام الرمادة وهو يقول : اللهم لا تهلكنا بالسنين ، وارفع هذا البلاء عنا : يردد هذه الكلمة » .

ثم يلجأ إلى دعاء الاستسقاء وصلاته ، وهى صلاة يصليها المسلمون عند امتناع المطر واشتداد الجدب . روى البلاذرى بإسناده إلى السائب بن يزيد ، قال : نظرت إلى عمر يوما فى الرمادة وقد غدا متبتلا متضرعا ، عليه برد لايبلغ ركبتيه ، يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تهرقان على خديه وعن يمينه العباس بن عبد المطلب ، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافع يديه إلى السماء ، وعج إلى ربه ودعا ودعا الناس معه » .

ورأى عمر أن يكون دعاء الاستسقاء عاما يشمل عرب الجزيرة جميعا ، فكتب إلى عماله على نواحى الجزيرة وقبائلها أن يخرجوا للاستسقاء بالناس يوم كذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه رفع هذا المحل عنهم . وخرج عمر لذلك اليوم وعليه برد رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى المصلى فخطب

الناس فتضرع، وجعل الناس يلحون، فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار، حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مدا وحول رداءه كما يفعل المستسقي فجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على اليمين، ثم مد يديه وجعل يلح فى الدعاء ويبكى بكاء طويلا حتى اخضلت لحيته.» وخرجت العرب فى ذلك اليوم عنه يستسقون فلم يبق منهم إلا غبرات أى بقايا. فخرجوا يستسقون كأنهم السنور العجاف تخرج من وكورها يعجون إلى الله».

* * *

وأخيرا يتأذن الله بالفرج بعد الشدة، وباليسر بعد العسر. حدث ابن سعد بإسناده قال: «قال عمر للعباس بن عبد المطلب، يا أبا الفضل! كم بقى علينا من النجوم؟ قال العواء! قال كم بقى منها؟ قال ثمانية أيام! فقال عمر، «عسى الله أن يجعل فيها خيرا».

والعواء بالتشديد نجم يظهر فى أفق الجزيرة فى فصلى الخريف والشتاء، وطلوعها يكون لاثنتين وعشرين ليلة من أيلول، وسقوطها لاثنتين وعشرين ليلة تخلو من آذار.

قال ساجعهم: إذا طلعت العواء وجثم الشتاء، طاب الصلاء.

وقد جعل الله فى تلك الأيام الثمانية خيرا كما رجا عمر. حدث محمد بن سعد بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال: «قال كنا فى الرمادة لا نرى سحابا، فلما استسقى عمر بالناس مكثنا أياما، ثم جعلنا نرى قزع السحاب، وجعل عمر يظهر التكبير كلما دخل وخرج، وجعل الناس يكبرون، حتى نظر إلى سحابة سوداء جاءت من ناحية البحر، ثم تشاءمت فكان الحيا».

وأرسل الله السماء على الجزيرة مدرارا، فاعتمت الأرض الهامدة السوداء

أن دب فيها دبيب الحيـــاة ، فاهتزت وربت وأنبتت الـكلأ والعشب ، فتغنى الطير ورتعت الآرام ، وثغت الشاء ، ورغت الإبل، وحمحمت الخيل ، وبدت معالم الربيع العربي في جميع أرجاء الجزيرة .

هنالك رأى عمر أن قد انتهى واجبه ، فأمر أولئك النفر الأربعة الموكلين بمن في نواحيهم بأرباض المدينة أن يخرجوا الأعراب إلى البادية ويعطوهم قوتا وحملانا ، وكان عمر ربما تولى العمل في إخراجهم بنفسه .

* * *

ورب سائل يسأل ، ماذا كان عمر فاعلا لو تمادى القحط عاما آخر ، أو لم تتوافر عنده المؤن الكافية ؟ ويجيبنا عمر نفسه عن هذا السؤال . روى البلاذري بإسناده إلى ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال عام الرمادة : « لو لم أجد للنـاس من المال ما يسعهم لأدخلت على كل أهل بيت عدتهم فقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا ، فإنهم لن يهلـكوا على أنصاف بطونهم». ولعل من هنا نشأت عند عمر خطة المقاسمة التي اتخذها بعد بإزاء العمال الذين كانوا يثرون على حساب مناصبهم ، فكان يقاسمهم أموالهم على النصف ، فيأخذ النصف لبيت المال ويدع لهم النصف الآخر .

وكم كان عمر بليغ الرفق بالناس عندما أخر تحصيل الزكاة عام الرمادة ، فلما كان العام القابل مبعث السعاة ، وأمرهم أن يحصلوا زكاة عامين ؛ وأن يوزعوا نصفها على الفقراء ويقدموا عليـــه بالنصف الآخر . وقـد بين عمر لموزعي الصـدقات من يعطون ومن لا يعطون . فأمرهم أن يعطوا من أبقت له السنة غنما وراعيا ، ولا يعطوا من أبقت له غنمين وراعيين ، وكـذلك واسى عمر

الفقراء فى تلك الشدة فى غير ما عنف بالأغنياء ولا إعنات لهم .

* * *

ولقد لقى عمر فى عام الرمادة نصبا شديدا ، ونال منه الجهـــد والإعياء . حدث ابن ســـعيد بإسناده إلى عياش بن خليفة قال : «رأيت عمر رضى الله تعالى عنه عام الرمادة وهو أسود اللون ، وعهدته قبل ذلك أبيض ، فقلت ، «لم اسود ؟» فقيل إنه كان يأكل السمن واللبن، فلما أمحل الناس حرمهما حتى يحيوا، فأكل الزيت ، فتغير لونه وجاع فأكثر » .

وحدث ابن سعيد بإسناده إلى أسامة بن زيد عن أبيه عن جده ، قال : «كنا نقول لولم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بأمر الناس».

* * *

رحم الله عمر ، كما رحم عمر الناس ؟



عمـــر الفاتح[1]

(الروح الذى وجه المسلمين إلى النصر الباهر)

مهما بعد العهد فليس ينقضى عجب المؤرخين وعشاق البطولة من فعال قواد العرب القدماء ، أمثال المثنى بن حارثة ، وخالد بن الوليـــد ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وحذيفة بن اليمان . فهم الذين قوضـــوا ملك كسرى ، وزلزلوا عرش قيصر . وهم الذين شادوا فى مدى من الزمن لا يتجاوز عشر ســنوات ملـكا ضخما انتظم الجزيرة والعراق وفارس والشام ومصر . ولـكن ينبغى ألا ينسينا لألاء هذه الفتوح ، وما انعقد على مفارق هؤلاء الأبطال المغاوير من أكاليل المجد ، أنهم ما كانوا يفعلون ما فعلوا ويبلون ما أبلوا لولا روح فياض غمرهم ، وعقـل جبار سيطر عليهم ، وعزيمة ماضية صرفتهم ، هى روح عمر بن الخطاب وعقله وعزيمته .

ولعلنا لا نكون مسرفين إذا قلنا إنهم جميعا لم يزيدوا على أن يكونوا أعوانا وجنودا لعب بهم عمر لعبة الحرب الرهيبة مع كسرى وقيصر ، وإنه فى حقيقة الأمر هو الفاتح الذى فتح الممالك ودوخ الأمصار ، وأقام الدولة العربية عالية الذرى ، ثابتة الأساس ، متينة البنيان . ورعى الله أبا الطيب حيث يقول :

الرأى قبــل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحـل الثانى

---

(١) الهلال ، نوفمبر ١٩٣٧ ص ٤٠ ـ ٤٤ .

ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

لم يكن عمر قبل الخلافة بالجندى البارز بروز من ذكرنا من القواد . وتعليل ذلك الخمول الظاهرى غير عسير. لقد كانت سنه فى الجاهلية أصغر من أن تأذن له بغشيان الحرب . أما زمن النبوة والخلافة الأولى فكان سداد رأيه وشجاعته الأدبية آثر عند الرسول وعند أبى بكر من شجاعته الحربية . فكان عندهما أظهر فى مقام الرأى والمشورة منه فى مشاهد الجلاد والطعان . على أن عمر كان من غير شك ذا كفاية حربية ممتازة اكتسبها من حضوره المشاهد مع رسول الله ومن تدبيره قتال الردة مع أبى بكر . وقد أدرك أبو بكر تلك الكفاية وود لو أنه انتفع بها انتفاعا مباشرا . فيروى أنه قال وهو على فراش المـوت : « وودت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ، كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله » . فقد عده أبو بكر عدل « سيف الله » وضريعه . وكفى بذلك دليلا على رسوخ قدمه فى فن الحرب وكفايته فى شئون القتال . فلما ولى عمر الخلافة ظهرت تلك الكفاية أيما ظهور وأثمرت أيما ثمر .

كانت كفاية عمر الحربية من ذلك الطراز العالى الذى يقوم على قوة التصور ، وسلامة الإدراك ، والإحاطة بطبائع البشر أفرادا كانوا أو جماعات ، وعلى معرفة الفرص عند سنوحها والعلم بطرق افتراصها ، ومواجهة الأزمات والطب لها . هذا إلى نشاط جم ، وعزيمة صارمة ، وذهن نفاذ . وهى صفات لم تجتمع بعد رسول الله لواحد من المسلمين غير عمر بن الخطاب .

وكان لعمر مظهر ومخبر . ويا بعد ما كان بين مظهره ومخبره ! فهو بادى الرأى رجل من أهل المدينة ، ساذج العيش ، يأكل أجشب الطعام ، ويلبس

أخشن الثياب ، وينام حيث يدركه النوم . وسلاحه درته ، ومطيته قدمه ، يروح ويغدو كأحد الناس ، لا يفضلهم إلا بأنه أول خدامهم ، وأشبه سادتهم بعبدانهم. بيد أنه إذا تأمله المتأمل وقد نصب نفسه لحرب الفرس والروم لرأى دون ذلك المظهر، أحوذيا مشمرا ، قد استحضر فى ذهنه ميادين القتال فى الشرق والغرب . فهو ينتخب الرجال ، ويعبىء الجنود ، ويرسم المواقع ، ويختط الخطط ، ويبعث رجلا بعينه إلى العراق وآخر إلى الشام وثالثا إلى مصر، ويأمر بالإقدام تارة وبالإحجام أخرى ، وينقل الأمداد من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، لا يكاد يستأخر حسابه فى ذلك أو يستقدم يوما واحدا . فإذا ما أحكم الخطة وأعد العدة قال لأصحابه فى هدوء الواثق بنجح مسعاه : « قد رمينا ملوك العجم بملوك العرب . فانظروا عم تنجلى ! » ، فإذا ما أفلح سعيه ، وأثمر غرسه ، وجاءه نبأ الفتح والظفر تلقاه فى خشوع وإخبات وتواضع تزيده روعة وعظمة وجلالا .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نقيم البينة على صحة تلك الدعاوى فى جميع ميادين القتال الذى نشب فى أيام عمر بين العرب وبين الفرس والروم . فنكتفى بالتدليل على صحتها فى مقام واحد : هو وقعة القادسية (١٤ هـ) المعدودة أعظم وقائع العرب مع الفرس .

لما اشتد الأمر على العرب بالعراق بعد وقعة الجسر (١٣ هـ) التى أودت بقائدين عربيين هما أبو عبيد ثم المثنى بن حارثة ، وصمم الفرس على طرد العرب من بلادهم ، قام عمر للأمر وقعد واهتم له غاية الإهتمام فكتب[1] إلى عماله على قبائل العرب وكورهم : « ... ولا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة

---

(١) الطبرى ج ٤ ، ص ٨٢ .

أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى . والعجل العجل ! » . فلما توافت إليه النجدات حارفيمن يؤمره عليها . وهم أول الأمر أن يسير فيها بنفسه إلى العراق، ولكن ذوى مشورته ثنوه عن ذلك . ثم وفق إلى رجل لحظ فيه أصالة الرأى وتمام الشجاعة ويمن النقيبة فأمره عليها . روى الطبرى [1] قال : « وكان سعد على صدقات هوازن ، فبعث إلى عمر بألف فارس وكتب إليه كتابا بذلك . . . فوافى كتابه مشورتهم ، فقالوا قد وجدته ! قال : من ؟ قالوا : الأسد عاديا ! قال : من ؟ قالوا : سعد ! فانتهى إلى قولهم . فأرسل إليه فأمره على حرب العراق وعقد له على أربعة آلاف معهم ذراريهم ونساؤهم . وأتاهم عمر فى عسكرهم فأرادهم جميعا إلى العراق ، فأبوا إلا الشام ، وأبى إلا العراق ، فسمح نصفهم فأمضاهم نحو العراق ، وأمضى النصف الآخر نحو الشام » .

« فلما نزل سعد بشراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غضى إلى الجبانة . فكتب إليه عمر : إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس ، وعرف عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعبهم ، وواعدهم القادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة فى خيله . واكتب إلى بالذى يستقر عليه رأيهم » [2]

ثم يكتب عمر إلى سعد بالمنازل التى ينزلها وبخطة الحرب وبميعاد تحركه ، قال الطبرى [3] : « وقدم على سعد وهو بشراف كتاب عمر... أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين . . فإذا انتهيت إلى القادسية ... وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر ، على حافات الحجر وحافات المدر

(١) المصدر نفسه ص ٨٥ .
(٢) « ص ٨٧ .
(٣) « ص ٨٧ .

والجراع بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحـــه ، فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم ، رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم . فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدا ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح ... فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس ، وشرق بالناس وغرب بهم » .

ثم كتب عمر إلى سعد يستوصفة المنازل والبقاع ويستخبره عن أحوال العدو[1] : « ... واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ، فإنه منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها واجعلنى من أمركم على الجلية » .

فكتب إليه سعد: «القادسية بين الخندق والعتيق، وإن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطىء نهر يدعى الحضوض يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة، وإن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم، وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا. وإن الذى أعدوا لمصادمتنا رستم فى أمثال له منهم . فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم . وأمر الله بعد ماض ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر

(١) الطبري ٤ ص ٨٩ — ٩٠

لنا » . فكتب إليه عمر : « قد جاءنى كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى ينغض الله لك عدوك ، واعلم أن لها ما بعدها . فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن » .

« ووضع سعد بالعذيب خيلا تحوط الحريم ... ونزل سعد القادسية ،فنزل بقديس ، ونزل زهرة بحيال العتيق فى موضع القادسية اليوم ... وبعث سعد إلى عمر بنزوله قديسا ، وأقام بها شهرا ... ثم كتب إلى عمر : « لم يوجه القوم إلينا أحدا ، ولم يسندوا حربا إلى أحـــد علمناه ، ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به . واستنصر الله فإنا بمنحاة دنيا عريضة دونها بأس شديد »[1].

« وبعث سعد عيونا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولى رستم بن الفرخذاذ الأرمنى حربه وأمره بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر . فكتب إليه عمر « لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يؤتونك به ... وابعث إليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلجا عليهم . واكتب إلى فى كل يوم » .

« .. ولما عسكر رستم بساباط كتبوا بذلك إلى عمر »[2]. « ثم إن سعد بن أبى وقاص حين جاءه أمر عمر جمع نفرا عليهم نجار ولهم آراء ، ونفرا لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء .. فبعثهم دعاة إلى الملك » وكان من أمر هذا الوفد العربى ما رواه الطبرى من مفاوضتهم لرستم أولا ويزد جرد أخيرا . وهى مفاوضة صورية بطبيعة الحال ؛ وقد انتهت بأن زحف رستم من

---

(١) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٩١ .
(٢) » » ص ٩٢ .

ساباط إلى القادسية للقاء سعد[1] « المحرم عام ١٤ هـ » .

كانت كفة الفرس هي الراجحة فى اليومين الأولين من أيام القادسية ، ثم كان من صنع الله للعرب ، ولطف تدبير عمر أن قدم المدد من الشام فى اليوم الثانى وقد زلزل العرب زلزالا شديدا ، فقويت عزائمهم وانتصفوا من الفرس فى اليوم الثالث ، وهو المعروف بيوم عماس . قال الطبرى[2] : « وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدا ، العرب والعجم فيه على السواء ، ولا يكون بينهم نقطة إلا تعاورها الرجال بالأصوات حتى تبلغ يزدجرد فيبعث إليهم أهل النجدات ممن بقى عنده ، فيقووون بهم .. فلولا الذى صنع الله للمسلمين بالذى ألهم القعقاع فى اليومين وأتاح لهم بها ثم كسر ذلك المسلمين » .

واتصل القتال ليلة اليوم الرابع ، وهى المعروفه عندهم بليلة الهرير . فلم يتنفس صبح ذلك اليوم إلا وقد انتصر العرب على عدوهم انتصارا عظيما .

قال الطبرى[3] « وكتب سعد بالفتح ... وكان كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ، ونقله منهم إلى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج . وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذ جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٠٠ .

(٢) « « ص ١٢٦ .

(٣) « « ص ١٤٤ .

من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة إذ لم يكتب لهم » .

ولما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقى البشير سأله : من أين ؟ فأخبره . قال يا عبد الله ! حدثنى . قال : هزم الله العدو ! وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين. فقال الرجل : فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر يقول : لا عليك يا أخى ! »[1].

ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر فى تلك الواقعة الفاصلة، فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فورهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بنابها ووطئته بمنسمها ، نادى فقال بالفارسية ما تعريبه : « أتانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل. أكل عمر كبدى ، أحرق الله كبده »[2]. ولما هم الأعاجم المقيمون بالمدينة أن ينتقموا ممن فتح بلادهم لم يعمدوا إلى خالد ولا إلى سعد ، وإنما عمدوا إلى عمر ابن الخطاب فاغتالوه . ولعمرى لقد كان رستم وأبو لؤلؤة ومن آمروه على قتل عمر أصرح وأشجع ممن جاء بعد من روافض الشيعة وغلاتهم الذين أسسوا رفضهم عمر على استئثاره بالخلافة ، كأن لم يكن هناك سبب آخر أدعى إلى الرفض وأجل خطرا ؟

(١) الطبرى ج ٤ ، ص ١٤٤ .
(٢) « « ص ١١٤ – ١١٥ .

دولة الأكاسرة [1]

٢٢٦ - ٦٥١ م

لقد شهدت إيران فى تاريخها الطويل دولا إيرانية كثيرة : شهدت فى الزمن القديم دول عيلام ، ومادى ، والكيانيين ، والأشغانيين ، والساسانيين . وشهدت فى عصورها الحديثه دول الصفويين والزنديين والقاجاريين . إلا أن الدولة الإيرانية التى يعظمها الإيرانيون أشد التعظيم ويفخرون بها الفخر كله ، ويرونها عنوان المجد الإيرانى والقومية الإيرانية بكل معانيها ، هى الدولة الساسانية ، أو دولة الأكاسرة التى قامت سنة ٢٢٦ م ، وعبرت من الزمان أربعمائة عام تزيد قليلا .

* * *

والساسانيون ينسبون إلى رجل يسمى ساسان ، كان قيما على بيت نار مدينة اصطخر بإقليم فارس . وقد ولد له ابن يسمى بابك ، نشأ جلدا هماماً ، حريصا على بعث القومية الإيرانية التى أماتتها أوكادت غارة الإسكندر المقدونى على فارس فى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، راغبا فى استعادة المجد الذى كان لإيران على عهد الدولة الكيانية العظيمة ، والذى قضى عليه الفاتح المقدونى فى عشية وضحاها . وما زال بابك يسعى وتواتيه المقادير ، حتى أنشأ لنفسه ملكا كانت قاعدته

(١) الثقافة ، العدد ١٤ ، ٤ ابريل سنة ١٩٣٩ .

مدينة (خير) الواقعة شرقي شيراز . فلما توفى خلفه ابنه أردشير (٢٢٦ - ٢٤١) فاقتفى أثر أبيه ، ونزع منزعه فى السياسة ، فصار يوسع رقعة ملكه على حساب مجاورية من ملوك الطوائف ، حتى فطن لمآربه كبيرهم أردوان الأشغانيين ، فنهض لحسم الأمر قبل استفحاله ، ولكن أردشير ساجله الحرب حتى قضى عليه فى واقعة عظيمة جرت سنة ٢٢٤ م ثم دخل بعد عامين المدائن مظفراً منصورا . فكان ذلك الفتح ختام عهد الفوضى السياسية التى نشأت عن الفتح المقدونى ومبدأ لعهد مجيد حافل بالأحداث العظام ، هو عهد الدولة الساسانية .

* * *

والمتصفح لتاريخ الدولة الساسانية من أول قيامها إلى أن تضعضعت أمورها واختلت أحوالها فى أوائل القرن السابع الميلادى يلحظ فيه ظاهرة ماثلة كل المثول ، هى ظاهرة الحروب المتلاحقة ، بل المتصلة ، التى وقعت بينها وبين الدولة الرومانية . وليس من شك فى أن تلك الوقائع الجسام ، والخطوب العظام ، إنما هى فصل من فصول تلك المأساة التاريخية الكبرى مأساة الصراع بين مايسمى على سبيل الاصطلاح شرقا ومايسمى غربا .

ولقد كانت كفة الدولة الساسانية ، هى الراجحة على وجه الإجمال فى ذلك الصراع العنيف . فلم يوغل الروم قط فى الهضبة الإيرانية ولاقاتلوا خصومهم فى عقر دارهم وصميم ملكهم ، بل كان قصاراهم أن يرددوا الغارة على أرمينية ، وأن تنساح كتائبهم فى سهول العراق ، لا يكادون يزيدون على ذلك ، فى حين أن الفرس على عهد كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) أمكنهم أن ينتزعوا من الروم آسيا الصغرى والشام وفلسطين ومصر ، وأن يرابطوا فى البر الأسيوى تجاه القسطنطينية نفسها ، وأن يحملوا بعض الصليب الأعظم من بيت المقدس إلى

عاصمتهم المدائن . وإلى هذا النصر أشار القرآن الكريم فى أول سورة الروم بقوله : « آلم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » الآية. ولقد يكون أروع حوادث ذلك الصراع الحاد العنيف وقوع الإمبراطور الرومانى وليريان أسيرا فى يد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢) وذلك عام ٢٦٠م وقضاء ذلك الإمبراطور التعس بقية حياته أسيرا ذليلا . لقد رج هذا الحادث الجلل العالم الرومانى رجا عنيفا ، كما كان سبب فخر لاحد له للفرس الساسانيين .

ولقد استظهر الساسانيون فى حروبهم مع الروم بالعرب فأذنوا لهم أن ينزلوا بادية العراق ، ويستقروا بالحيرة فى القرن الرابع الميلادى ، وينشئوا بها مملكة الحيرة المشهورة التى نفعت الدولة الساسانية نفعا مزدوجا ، فكانت عونا لها على الروم ، كما أنها بسطت نفوذها على شرقى الجزيرة العربية وجنوبيها . ولقد نهج الروم منهج الفرس فأقاموا من عرب بادية الشام مملكة الغساسنة ، وكان موقفها من الروم موقف الحيرة من فارس سواء بسواء .

على أن المظهر الحربى للدولة الساسانية لم يكن مقصورا على مجالدتهم الروم وحدهم ، فلقد كانوا عرضة لهجوم القبائل البدوية الهمجية التى تنزل حدودهم الشمالية الشرقية ، ولكنهم استطاعوا أن يدرءوا ذلك بانتصاراتهم العديدة على التتار المعروفين بالهياطلة أولا وعلى قبائل الترك أخيرا ، وأن يبسطوا سلطانهم على رقعة واسعة من الإقليم الذى عرف بعد بما وراء النهر .

وإذا صح أنه لا يوجد فى هذا العالم خير محض ولا شر محض ، فيمكن القول بأن هذه الحرب على كثرة ما أزهقت من نفوس ، وخربت من بلدان ، وأكلت من مال ، لم تكن شرا محضا ، بل لقد نتجت خيرا كثيرا للفرس أنفسهم وللروم والعرب والترك. فأما الفرس فقدكان من سياستهم بإزاء عدوهم الرومانى

أن يفتحوا أبواب بلادهم للمخالفين على الدولة الرومانية من رعاياها . فانتجعت أرض فارس نساطرة النصارى الذين اضطهدتهم الدولة الرومانية ، ونزلوها آمنين مطمئنين ونشروا فيها العلوم والآداب السريانية المستمدة من علوم الأغريق وآدابهم ، فكان لذلك أثر كبير فى رفع المستوى العلمى والثقافى للدولة الفارسية الساسانية .

ولما أمر الامبراطور جستنيان (٥٣١ - ٥٧٨ م) بإغلاق مدارس الفلسفة بآثينا وإخراج الفلاسفة من ملكه ، لم يكن لهؤلاء العلماء من ملجأ سوى فارس، وقد تقبلهم العاهل الساسانى العظيم كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) بقبول حسن وأذن لهم فى نشر علومهم فى بلاده ، فنشروا فيها مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى امتزج بالعقلية الإيرانية والخيال الإيرانى ، فكان لذلك الامتزاج أثر قوى فى ظهور التصوف الفارسى المشهور فى آداب الفرس قديما وحديثا .

ولقد أخذ الروم عن الفرس الساسانيين أن دينا رسميا واحدا خير للدولة من أديان متعددة ، فاتخذوا النصرانية ديانتهم الرسمية وهجروا الوثنية ، فكان ذلك بدء اعتزاز المسيحية وانتشارها فى الأرض .

ثم أن اتصال العرب بالفرس الساسانيين وقف العرب على أساليب الفرس والروم فى الحرب ، كما أظهرهم على معارف ومعلومات دينية لم يكن لهم بها عهد من قبل ، فعلا مستواهم الثقافى ، وتهذبت نواحى حياتهم الخشنة الساذجة إلى حد بعيد . وما يقال عن العرب يقال مثله عن الترك فإنهم تأثروا بالمدنية الإيرانية تأثرا كبيرا إلى حد أن غير واحد من فلاسفة الإسلام الذين نبغوا بما وراء النهر لا يدرى أصله على التحقيق : أفارسى هو أم تركى ؟ .

* * *

قد يخيل إلى القارىء أن الساسانيين لكثرة خوضهم غمار الحرب مع الروم تارة والترك أخرى ، قوم لاهم لهم إلا الحرب والجلاد ، وأن شأنهم في ذلك شأن الأشوريين والأسبرطيين والترك العثمانيين . ولكن الواقع ليس كذلك ، فإن عظمة الساسانيين الحقيقية تتجلى زمن السلم أكثر مما تتجلى زمن الحرب .

لقد كان لهم سياسة داخلية مقررة محكمة تدل على أن ملوكهم كانوا رجالا موفوري الحظ من الخبرة العملية بشؤون الناس وعلى علم تام بطبائعهم . فمن أسس هذه السياسة عملهم على التمكين للنظام الملكي في إيران وجعله لا مجرد نظام معرض لعواصف السياسة العاتية وأعاصيرها الهوج ، ولكن عقيدة تملك على الشعب الإيراني لبه وقلبه على السواء ، فألقوا في نفسه أنهم سلالة الملوك الكيانيين العظام الذين كانوا يحكمون في الأرض بتفويض من إله النور آهورا مزدا ، وأنهم ورثة ملك الكيانيين وأنهم إنما يحكمون بهذا التفويض الإلهي ، وأن عليهم وحدهم سمة الملك وطابع الحكم لا ينتقل ذلك عنهم إلى غيرهم أبدا . وقد عززوا هذه الدعوة بأن أحاطوا الملك بسياج من المهابة والأبهة والعظمة ، يتمثل في تاجه المتألق وسريره العالي وإيوانه المنيف ، وفي احتجابه عن الشعب ، وفي تلك المراسم الدقيقة التي كان يؤخذ بها كل من يسعده الحظ بالمثول بين يدي كسرى ملك الملوك .

ومن الأسس التي عنى بها الساسانيون لمصلحة الملك والرعية على السواء الدين . والدين الفارسي القديم هو الزرادشتية التي ظهرت قبل الدولة الساسانية بأزمان طويلة . والزرادشتية ديانة رمزية تؤله الخير والشر وتأمر بالخير وتنهى عن الشر . والخير والشر عندها أمران ماديان محسوسان إيجابيان ، فهي تأمر بالعمل والإنتاج والزراعة والتجارة ، وتحث على الزواج والنسل وتعد ذلك خيرا ، وتنهى عن أضداد ذلك وتراها شرا .

ولقد أدرك الساسانيون القيمة العملية للديانة المذكورة فعملوا من أول أمرهم على مناصرتها وجعلها الديانة القومية للأمة الإيرانية ، فأنشأوا فى كل مدينة ، بل فى كل قرية ، بيوت النار حيث يعبد الناس النار ، مبعث النور الذى هو رمز الخير وطاردة الظلمة التى هى رمز الشر . وقد أدتهم تلك العناية بالدين الزرادشتى إلى رفع شأن رجاله المعروفين بالموابذة على سائر رجال الدولة .

فلما ظهر مانى ودعا إلى مذهبه ، وكان مذهبا عدميا سلبيا يرى الخير فى الزهد ، وعدم الإنتاج ، والامتناع من الزواج والنسل ، فإن بهرام الأول (٢٧٣ - ٢٧٦ م) تجرد لمحاربته فقتل مانى ونكل بأصحابه شر تنكيل . وقد قابل رجال الدين الزرادشتى هذا الصنيع من الساسانيين بأن أيدوا سلطانهم السياسى بما لهم على الشعب من نفوذ روحى عظيم .

ومن المبادىء المقررة فى سياسة الساسانيين الداخلية المحافظة التامة على النظام الاجتماعى الإيرانى القديم القائم على الأسرة والملكية ، فلما ظهر مزدك فى أوائل القرن الخامس ، ودعا إلى نحلته الشيوعية الهادمة لنظامى الأسرة والملكية ، وافتتن بها العامة ، فإن كسرى أنوشروان تجرد لمحاربة نحلته ، فقضى على مزدك وأتباعه ، كما قضى من قبل بهرام الأول على مانى وأصحابه .

وأجمل الفضائل السياسية التى كان يتوخى أكاسرة الدولة الساسانية التحلى بها فضيلة العدل . وهى ملحوظة فيهم من أولهم إلى آخرهم . فقد ورد فى عهد أردشير الأول إلى ابنه قوله : « لا ملك بغير جند ، ولا جند بغير مال ، ولا مال بغير زراعة ، ولا زراعة بغير عدل » فالعدل عنده أساس الملك . وكان أنوشروان يلقب بالملك العادل ، وعلى هذه الفضيلة العظيمة جروا فى نظامهم

التى تتصل بالحقوق والواجبات بوجه عام .

* * *

ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر . فإذا كانت سياسة الأكاسرة تنطوى على خير كثير فإنها للأسف كانت تحمل فى ثناياها العناصر التى أدت فى النهاية إلى انتقاض أمرهم وضياع ملكهم ، فإن حملهم الشعب على اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به إبان قوة الأسرة الساسانية ، فلما اضمحلت ، وعراها الوهن والهرم من بعد كسرى أنو شروان لم يكن ممكنا أن يقوم رجل قوى فينتزع منهم السلطان ، وينقله إلى أسرة أخرى فتية ناهضة . فإذا حدث أن رجلا قويا حدثته نفسه بذلك لقى الخذلان من الشعب ، على نحو ما حدث لبهرام جوبين فى أواخر القرن السادس . ثم إن انتصار الدولة للزرادشتية والمبالغة فى رفع أقدار رجالها قد أدى فى نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متعصبة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس فى مسائل الدين ، ولا التسامح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان منهم بإيران خلق كثير .

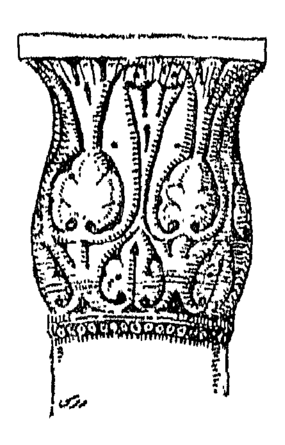
ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحو الذى كان عليه دون تعديل يطابق الظروف ، أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة كثيرة الامتيازات ، كما قسم الشعب طبقات متحاجزة تحاجزا تاما أوغر قلوب الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيوعية مزدك إنما كانت احتجاجا عمليا على ذلك النظام بصورته التى أصبح عليها فى القرن السادس الميلادى .

وكان اجتماع هذه العوامل فى نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة فى الفوضى والارتباك ، وهى فوضى يكفى للتدليل عليها أن اثنى عشر ملكا جلسوا

على سرير الملك فيما بين عامى ٦٢٨ و ٦٣٢ م ، أى فى نحو أربع سنوات . ومن الاتفاقات العجيبة أنه فى تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين ! فلم يقو صرح الأكاسرة المتداعى على صدماتهم العنيفة فى ميادين القادسية وجلولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكاسرة وهو يزدجرد بن شهريار بقية أيامه شريدا مطردا إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٣١ هـ (٦٥١ م) ، فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلا واضحا لجحود العامة وغرور الحياة .

* * *

على أن الدولة الساسانية لم تذهب إلا بعد أن أدت واجبها من حيث هى دولة عظيمة . لقد أقامت بإيران معالم حضارة رائعة ، لا تزال آثارها شاهدة روعتها ، كما أنها ثقفت الشعوب المجاورة لها ، وبخاصة العرب والترك ، وهيأتهم للقيام بدورهم التاريخى العظيم . وهى التى علمت الروم أن وحدة الدين خير فى السياسة من تعدده ، وقد علم الروم ذلك وعملوا به ، فكان من وراء ذلك الخير كل الخير للنصرانية . وأخيرا فإن دولة الأكاسرة الساسانية بنظمها وسياستها وإدارتها وحياتها العامة ، كانت المثل والقدوة للمسلمين فى عصرهم العباسى العظيم ؟



فتح العرب لمصر (١)

تاليف الدكتور ألفرد ج. بتلر

وتعريب محمد فريد أبوحديد

سمعت مرة أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بك يقول ما معناه : أننا الآن فى دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية ، وهو قول لاغبار عليه ، فإن زمن الإقتصار على تراثنا العلمى والأدبى القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار فى العلم والأدب لم يأت بعد ، وينبغى أن يتقدمه زمن نتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية إلى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح فى صدر الدولة العباسية .

إننا بهذا التوافر نبث فى حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا فى البحث والعرض العلمى جديدا ، ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة وأعددنا لها أساسا قويا راسخا لا يخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان ، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والإنسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضن يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية. فهى من ناحية المترجم تطلب غزارة علم وأدب وإنكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للمؤلف الذى ينقله ، وقليل من الناس

---

(١) نشرت بالعدد الخامس من الرسالة (السنة الأولى) ١٥ مارس ١٩٣٢

من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هى تقتضى من ناحية الناشر ، وبخاصة فى بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية التى تصيبه مما ينشر ، فإذا إستطاع أن يخرج من الأمر كفافا لا عليه ولا له فحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فماذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة فى بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذ الكساد تأثرا شديدا ، حتى أصبحت لا شرقية ولا غربية ولا قديمة ولا حديثة. ولكن الحمد لله ، فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ما نسمعه عن التفكير فى وضع قاموس عربى جديد يجمع شتات اللغة التى أصبحت إلى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آيته أيضا ماترجم فى السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه ، نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لإفلاطون ، وكتاب الأخلاق، وكتاب الكون والفساد ، ونظام الأثينيين وآلام فرتر لجوتة ، وفاوست له أيضا، والشاهنامة للفردوسى ، وأصل الأنواع لدارون . ثم كتاب فتح العرب لمصر وهو الذى سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

* * *

ألف كتاب « فتح العرب لمصر» منذ ثلاثين عاما بحاثة إنجليزى هو الدكتور ألفرد ج . بتلر. ونقله إلى العربية منذ عام صديقنا الأستاذ محمد فريد أبو حديد، ثم نشرته فى هذه الأيام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر. والكتاب يقع فى قرابة ستمائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . فى الفصول الأربعة الأولى يعرض المؤلف الحال السياسية للدولة الرومانية فى

أوائل القرن السابع الميلادى . ويتكلم عن الثورة التى انتهت بأن أصبح هرقل عاهل الدولة المذكورة ، وفى الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع يتكلم على غزو الفرس الشام ومصر ، فنهضـــة هرقل واستزداده الإقليمين المذكورين ، وعقده مع الفرس صلحا أعاد إلى الروم شرفهم العسكرى ، فالحال الادبية للإسكندرية خاصة لذلك العهد . وفى الفصل العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر يتكلم على ظهور الإسلام . وفتح العرب الشام ومصر ، واضطهاد قيرس البطريرك الملكانى للأقباط فى السنوات العشر السابقة على الفتح. ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام على حوادث الفتح العربى لمصر. فيتكلم على زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه مدينة مصر، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس ، فحصار حصن نابليون وأخذه ، فالزحف على الإسكندرية والاستيلاء عليها ، فأخذ المدن الساحلية الشمالية ، فانتهاء السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين إلى الثلاثين يتكلم المؤلف كلاما ممتعا موضوعه حال الإسكندرية وقت الفتح ومكتبتها المشهورة ، وحريق هـــذه المكتبة المنسوب إلى عمرو ، وغزو عمرو لبرقة وطرابلس ، والنظام الإدارى الإسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها بصفة خاصة ، شخصية المقوقس ، والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى ، والكتاب إلى جانب ذلك مزود بخرائط ورسوم تعين على فهم موضوعه .

من هذا العرض يتبين القارىء أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائعه كل الاستيعاب ، والحق أن الدكتور بتلر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الإسلامى ، وحل كثيرا من

ألغازه : أوضح شخصية المقوقس ، وكانت غامضة ، ورتب حوادث الفتح ترتيباً أوفى إلى الصحة منه فى أى مصدر قديم . وأتى بالقول الفصل فى حريق مكتبة الاسكندرية ، وبين وجه الخلاف القديم فى فتح مصر ، أصلحا أم عنوة ؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسى والدينى فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الإدارية والإقتصادية ، على ما كان لها من أثر قوى فى سهولة انتقال مصر من حكم الروم إلى حكم العرب . ولقد ظهر فى هذا الموضوع فى العشرين سنة الأخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها . من هذه البحوث : « النظام العسكرى لمصر البيزنطية » لجان ماسبرو . و « الإدارة المدنية لمصر البيزنطية » لجرمين رويارد .

ثم أننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن عمرا عندما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجند وحرج موقفه بين جنود الروم جنوبا وشمالا ، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ورأى فى الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف عبور النيل إلى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية ، فوجد المدد قد قدم من المدينة . لاشك أن هذه طريقة غريبة جدا فى الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة ، ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المكيدة . يضاف إلى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان : فنوع لا يعرفها بالمرة ، ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب إلى المعقول من الصورة المذكورة ؛ ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النقيوسى بحجة أنه أقدم عهدا من كل المصادر

العربية ؛ ولكن القدم وحده لا يكون دائما دليلا على صحة المصادر التاريخية . كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه فى الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك المشهورة كانت فشلا لأنها لم تؤد إلى ما كان الرسول يرمى إليه بها من مصادمة الروم ، والحق أنها أدت إلى ما كان النبي ﷺ يرمى إليه من شد سلطانه السياسى على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد توهم المؤلف أن مسيلمة المتنبىء ظهر باليمن (١٣١) والصحيح أنه ظهر باليمامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية وحسب القارىء أن يعلم أن الدكتور بتلر قد أقام فى كتابه تاريخ الفتح العربى لمصر على أساس علمى متين ، وأنه إلى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه ، فضلا عن أن يفوقه .

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شىء أن أهنىء صديقى فريدا على توفيقه فيها أخلص التهنئة ، فقد جاءت صورة صادقة للأصل مطابقة له فقرة فقرة ، وجملة جملة ، هذا مع سهولة العبارة وسلاستها ووضوحها ، مما يشهد للأستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة ، ولكن ليت شعرى أى مترجم ولو كان الأستاذ فريد نفسه يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا يهفو قلمه ولا ينحرف عن الأصل الذى ينقل عنه يمنة أو يسرة ؟ على هذا الاعتبار أهدى إلى الأستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة . (النذر اليسير) وصوابها (النزر) بالزاى المعجمة ؛ وفى ص٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De Goeje بـ (دى جويجة) وصوابه (دى غويه) ؛ ووردت فى صفحة ٢٧ أيضا كلمة (المونوفيسية) وأحسن منها أن يقال (المذهب اليعقوبى) ؛ وجاء فى ص ١٢٣ (هزيمة تبوك) بدلا من

(فشل غزوة تبوك) وهو المقابل للأصل . وفى ص ٨٣ ترجمت Theology (بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ؛ وجاء فى ص ٢١٨ تسور الزبير إلى الحصن والصواب أن يحذف حرف الجر . وفى ص ٢٢٨ ترجمت Drawbridjes بـ (قناطر) وأصح من ذلك (جسور) ، لأن العرف جرى بإطلاق اللفظ الأول على البناء الثابت الذى يعقد فوق الأنهار، وهو غير المراد من اللفظ الانجليزى . وجاء فى ص ٢٥٥ : وكانت « مسلحة » المدينة بدلا من : وكانت « حامية المدينة » . وفى ص ٤٠٦ : وقال عن (النواوى) وصوابه (النووى) بدون ألف المد .

على أن هذه الملاحظات أيضا لا تضر الترجمة شيئا : وإذا كان الكتاب مثالا يحتذى من حيث دقة البحث العلمى فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من حيث أمانة النقل وصحة التعبير ؟



على ساحل بحر الروم[1]

إن عهدى ببحر الروم بعيد ليس بالقريب ، فلعشرات من السنين خلت أذكر أنى كنت بمدينة الاسكندرية ، وأنى كنت طفلا عليل الجسم رمد العينين ، قد أعيا نطس الأطباء علاجه ، وحار فى أمره والداه أشد الحيرة . وأخيرا وصف الواصفون لوالديه رحمة الله عليهما ماء البحر المالح ، وقالوا لها أنه ينفع طفلهما المريض . فكان أكبر إخوتى يقتادنى كل صباح إلى ساحل البحر من « حى الأنفوشى » فيدفعنى فى الماء إلى حيث تغمر لجته ساقى الناحلتين ، ثم يجعلنى أنضح وجهى بالماء الملح بحيث يتخلل جفونى الرمدة . وربما تجرد هو بعقب ذلك من ثيابه فعبث فى الماء بعد أن يكون قد استكتمنى ذلك عن والدى . وربما قضينا بعد ذلك كله بعض الوقت نعبث بالرمل أو نلتقط من صخور الساحل بعض ما علق بها من الأصداف .

ثم تأذن الله بذهاب المرض عنى وعود الصحة إلى . ولست أشك فى أن الفضل فى ذلك يرجع إلى ماء البحر ، وهوائه ، وشمسه ، وإلى الحرية التى كنت أنعم بها على ساحله . ومهما يكن من الأمر فقد نشأت على حب البحر ؛ وأعتقاد أنى مدين له فى صحتى وعافيتى وحياتى كلها . وهما حب واعتقاد لم تزدهما الأيام إلا رسوخا فى نفسى وتمكنا من قلبى .

* * *

(١) مجلة الرابطة العربية ، العدد ١٢١ ، اكتوبر ١٦٣٨ .

ودارت الأيام ، فإذا أنا تلميذ بمدرسة رأس التين ، أغدو إليها كل صباح وأروح منها كل مساء . فكنت أجعل طريق غدوى إليها ورواحى منها على البحر ، لا أكاد أعدل عنه إلا مضطرا . وإن أنس لا أنس ما كانت تجتلى عيناى فى تلك الأيام من البحر فى مختلف حالاته وتنوع منظره . فتارة هو ساج ساكن كصفحة المرآة ، وتارة هو هائج مضطرب يرمى بموج كالجبال ، وأخرى هو بين بين ، فليس بالساكن الساجى ولا الهائج المضطرب . ولقد كان البحر فى تلك الأيام يهدى بتعدد صوره وتنوع منظره إلى فكرى الغض وخيالى الناشىء ضروبا من معانى الروعة ، والقوة ، والحركة ، واللانهائية .

كان مبلغ حظى من البحر فى ذلك العهد أن أسير وساحله ، وأن أنعم بالنظر إليه ، لا أتجاوز منه غير ذلك . فقد كان أبواى يحذرانى الدنو منه فضلا عن التورط فى لجته . وكانا يلقيان فى روعى أن فى البحر كائنات مخيفة تختطف الأطفال الذين يجرءون على نزوله . فلما ترعرعت بعض الشىء كانا يقصان على نبأ التيارات الخفية التى تذهب بالأولاد المجازفين إلى حيث لا يعودون .

ولم يكن يعمر ساحل البحر فى ذلك الزمان إلا طوائف من الناس يعملون فى البحر ، من سفانى السفن ، وصيادى السمك ، ونساجى شباك الصيد ، وإلا أوزاع من الشبان العاطلين من العمل ، يغشون ساحل البحر لتزجية الوقت ، أو للتشاجر على عادتهم أيامئذ ضربا « بالبونيات والروسيات » وتطاعنا بالمدى والسكاكين أحيانا .

* * *

ثم دارت الأيام دورة أخرى ، فإذا بى قد أتممت دراستى ، وبلغت مبلغ الرجال ، وارتفعت عنى رقابة والدى ، وإذا بسواحل الاسكندرية قد قامت على

حافاتها المصايف والحمامات والملاهى والمقاهى .

وكنت لما قدمت من الأسباب لم أتعلم السباحة بعد . فوطنت النفس على استدراك ما فاتنى من ذلك زمن الطفولة . وأردت الإستعانة فيما قصدت بكتاب انجليزى فى فن السباحة ، ولكن الكتاب لم يسعفنى ، فاستعنت بصديق كريم عليم بذلك الفن . وما هى إلا أسابيع معدودة حتى حذقت أن أمسك جسمى فوق سطح الماء ، ثم أن أحرك أطرافى جيئة وذهابا ، ثم أن أقذف بنفسى فى الماء من عل ، وأن أغوص تحت لجته أخيرا . ومن ذلك الوقت صار البحر متعة نفسى وبهجة قلبى وبخاصة زمن الصيف . فكنت أغشى الحمامات مقيدها ومطلقها . ففى الحمامات المقيدة حيث لا يباح اختلاط الجنسين فى مكان واحد كنت أعنى بتقوية جسمى وتقويمه ، وتشذيبه وتهذيبه ، عملا بالحكمة الفرنسية القائلة إن كل مجهود ينفقه الشاب فى تقوية جسمه يكسبه قوة أدبية . وفى الحمامات المطلقة حيث يباح استحمام الجنسين فى مكان واحد كنت أروض عينى على تعرف مواقع الحسن والقبح من جسم الإنسان . وكان رائدى فى ذلك ما لقفته إبان الدراسة من كتب الفن والأدب . فكنت وأصدقائى عند كل مناسبة نتمثل شيئا مما أثر فى الغزل والنسيب عن امرىء القيس ، وابن أبى ربيعة ، وأبى تمام ، والبحترى وغيرهم . وقد نتذاكر آلهة الجمال عند اليونان والرومان ، وتماثيل فدياس وشخصيات شكسبير ، وصور ميشيل انجلو وغيره من أئمة الفنانين .

والحق أنى لم أدرك إلا على ساحل بحر الروم جمال الجسم الإنسانى الذى هو أصل الفنون وملهمها وموحيها ، وبدايتها ومنتهاها .

* * *

ثم مضت أيام ، وتقضت أعوام ، فإذا بى أعلم فى بعض الجامعات ، وإذا بى زوج ورب بنين وبنات . وإذا العاطفة المشبوبة قد هدأت ، والعين الخائنة قد ارعوت ، وإذا العقل هو الآخذ بالزمام ، وعليه المعول وإليه الاحتكام .

جلست فى يوم من أخريات صيف هذا العام على سيف البحر من رمل الاسكندرية . فلم يستهونى هذه المرة ما كان يستهوينى من قبل ، من جسوم شبه عاريات كالدمى ، مرموقات كالمنى ، آنا تصافح الموج وتلاعبه ، وآنا تخوضه وتخالطه . وطوراً ينتظمها الرمل ، فلولا الحياة لخلتها تماثيل من عاج مكفوءة ، وطورا يتوزعها الصخر ، فكأنما هى قطع الرياض الممطورة ، وآنا هن بين الحالين ، يخطرن رائحات غاديات ، آنسات نافرات ، قريبات بعيدات .

كلا ! ولم تأخذنى هذه المرة روعة البحر ، وهو الذى طالما فتنت روعته خاطرى وسحرت لبى ، والذى له على من الفضل ما أنا عاجز عن شكر بعضه فكيف بشكره كله ! وإنما عرانى ما يعرو الأساتذة المحنكين ، وإن شئت فقل الكهول المجربين ، من ميل إلى التفكير ونزوع إليه عند كل مناسبة وحين لا مناسبة . فذهبت أفكر كأنما أنا وحدى بذلك الساحل ، وكأنما الساحل قد خلا من أسباب الفتنة ودواعى الهوى .

سبحانك اللهم ! هذا بحر الروم مهد الملاحة عند آبائنا الأولين . هذا بحر الروم الذى قامت حوله حضارة مصر ، وبابل ، وفينيقية ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، وهى الحضارة التى ترتكز عليها حضارة العالم الحديث وإن جحد الخلف فضل السلف . هذا بحر الروم أجل بحار الأرض شأنا وأبعدها أثرا فى التاريخ ، قديمه ، ووسيطه ، وحديثه ، ومعاصره .

هذا البحر يقال إن مصر تملك من سواحله ما يقدر ذرعه بمئات الأميال ،

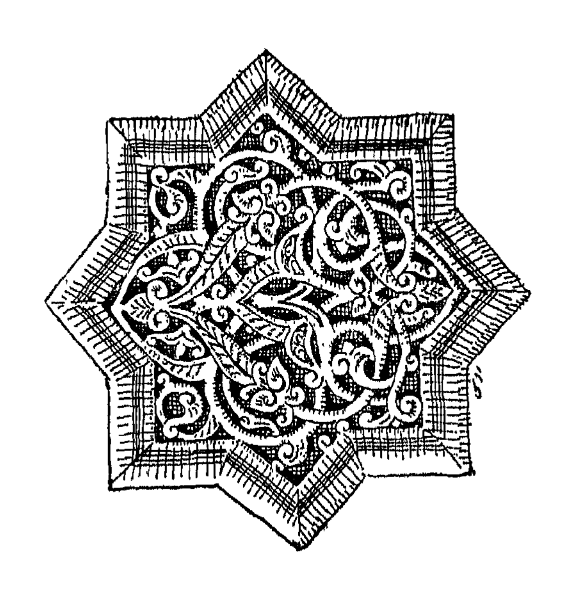
ومع ذلك فليس لها فيه سفن تجارية تعتملها زمن السلم، ولا أسطول حربى ينافح عنها إذا جد الجد ، وعظم الخطب .

ولا يظن ظان أن تلك الحال طبيعيـــة ، بل هى مقصودة متعمدة . فإن البحر باب عظمة الأمم وطريقها ، وما من أمة عظم شأنها وعلا نجمها إلا كان البحر سلمها إلى المجد وسبيلها إلى النبوغ . وحذاق المؤرخين يرون البحر قسيم البر فى تنشئة الدول ورفع عمادها . ولئن خفيت تلك الحقيقة على محدثى المشارقة فقد أدركها مستعمرو بلادهم فحرصوا على أن تكون مفاتيح الشرق بأيديهم ، وتركوا لأهل البلاد ما وراء ذلك من رمال يتمرغون عليها وأوحال يضطربون فيها . وإن نظرة عجلى يلقيها القارىء على خريطة الشرق لكفيلة بأن تثبت له صحة هذه الدعوى . فما من مرفأ منيع ولا مرسى أمين ، من لدن طنجة بأقصى المغرب إلى سواحل الصين بأقصى المشرق ، إلا وهو بأيدى المستعمرين الغاصبين .

لقد غدوت يابحر الروم لا تقترن فى أذهان شبابنا إلا بذكر الحمامات والملاهى ، والمصايف والمقاهى ! فمتى يا ترى تصبح مقترنا بذكر الأسفار الطوال ، والوقائع الجسام ، إن كان ولا بد من وقائع جسام ؟ متى تضعون أيها المصريون أيديكم على سواحلكم حقا وتستغلونها حقا ، فتصبحوا أمة « ملاحين » إلى جانب كونكم أمة فلاحين ؟ لقد استرهنكم المستعمر الأرض ووضع فى أعناقكم أغلالا وفى أقدامكم قيودا . ولا خلاص لكم من ذلك الرق المضروب عليكم إلا بركوب متن البحار . هنالك تنشقون فوق ثبج الماء ريح الحرية الصحيحة ، وتبرأون من علل وأدواء أورثكموها لزوم البر أحقابا طوالا ، هنالك تنبعث مصر الحرة حقا ، مصر الحديثة حقا ، مصر العظيمة حقا .

ولقد كنت أسترسل فى تفكيرى هذا لولا أن قطعه على ابنى الصغير بقوله ! لقد ابترد الجو ، وكادت الشمس تغرب ، فهيا إلى المنزل ! وانتبهت ، فإذا الأفق الغربى قد أحالته الشمس الغاربة لهبا مضطرما ، وإذا الأفق الشرقى قد أخذ يتلفف فى غلالة سوداء . ثم جعلت ظلمة المشرق تشتد وتمتد حتى استحال الأفق كله ظلاما فى ظلام . وتألف من ظلام الجو وهدير البحر منظر يبعث فى النفوس الوحشة والرهبة . هنالك نهضت فاقتدت أولادى نحو المنزل وأنا أردد قول القائل :

للدهر لو كنت تدرى هول منطقه　　　لحن تردده الآصال والبكر



شعراؤنا وسيدنا عثمان (١)

أبت الأقدار إلا أن يشقى بالخلافة سيدنا عثمان فى حياته وأن تشقى بها ذكراه بعد مماته . فقد تولى الخلافة بعد عظيم من عظماء الأمة العربية فاستقامت له الأمور ست سنين ثم اضطرب بحر السياسة وهبت أعاصير الفتنة من كل جانب ، فلبث يغالبها وتغالبه ست سنين أخرى ، ثم طأطأ لها من هامته ومضى مقتولا شهيدا ، فكان أول خليفة سفك دمه جهارا ، وانصدع بمقتله شمل الأمة الإسلامية انصداعا لم يلتئم حتى يومنا هذا .

عابوا عليه لينه وإيثاره مع هنات أخر ، ولو أنصفوا لعدوا عثمان من أولئك الرجال الذين لطف مزاجهم الأخلاق وترقرق ماء الحياء فى وجوههم وأصبحوا بعيدين عما تتطلبه مآزق السياسة ومحرجاتها من جراءة وإقدام . وإن كان لين الرجل لم يكن عن جبن فى النفس وخور فى الطبيعة : فقد نصر النبى فى كثير من المواقف الحرجة وثبت يوم الدار والموت يتوثب عليه من كل جانب وما رعدت له فريصة ولا اضطرب له جنان .

فلما مضى لسبيله كان خلفه بطلا من أبطال العرب ذا فصاحة وشيعة تتعصب له وتنمى على مخالفيه . والناس عامة يتعجبون بالمتهجمين من السواس والمشهورين من أبطال الحروب ومساعير القتال ويتشوقون سماع أخبارهم وقراءة سيرهم ، ولكنهم لا يحرصون كثيرا على مطالعة سير الأنبياء والقديسين والعلماء

(١) السفور ، العدد ١٧٦ فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨ .

والأخلاقيين وكأن ذلك نزوع منهم إلى معيشة آبائهم الأولين أيام كان للشجاعة الطبيعية الشأن الأكبر فى حياة الإنسان .

من أجل ذلك نرى أن عثمان الحيي الوجه، الرقيق الطبع، الدمث الخلق، قد أصبح بينه وبين سابقه ولاحقه تباين فى نظر الجمهور كبير . فلا هو فى شدة عمر وصرامته ، ولا وهو فى جراءة على وإقدامه، فكان كواد بين جبلين تتخطاه أنظار المتحمسين من المؤرخين ، كما تتخطاه أنظار المتحمسين من شعرائنا . وإن كان واديا يجرى فيه الماء العذب وينبت على جانبيه غض الزهر ويانع الثمر .

قرأنا « البردة » و « نهج البردة » و « كشف الغمة » و « العمرية » و « البكرية » ولبثنا حينا نتوقع قراءة « العثمانية » فإذا بنا فى شهر وبعض شهر نقرأ ثلاث « علويات » طوال ، فعجبنا من متابعة شعرائنا للرأى العام حتى فى اختيار الموضوعات الشعرية .

إذا كان التاريخ يخطىء عثمان فإن الشعر يعطف عليه العطف كله . وإذا كان المؤرخ يستخلص العبرة من عصر عثمان فإن الشاعر يجد فيه كثيرا مما يهمه خاصة من محرك للعواطف ومستفز للقلوب، ولعلنا لانجد فى التاريخ كله موضوعا أروع وأدعى إلى أن يكتب فيه الشاعر الفلسفى والكاتب التمثيلى والعالم الإجتماعى من موضوع الثورة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان . ولو انا ارتجعنا الأيام الخوالى وألقينا نظرة تنفذ قلوب الناس أيام تلك الثورة وتستقرىء وحى غرائزهم لرأينا منظرا عجبا :-

فهذه روح الجاهلية الأولى، روح الخلاف والشقاق، ترفع من رأسها مناهضة روح الدين الجديد، روح التضامن والاتحاد . وهذا الباطل يتغلب حينا على الحق. وتنجم رؤوس الفتنة فى الكوفة والبصرة ومصر، ثم تندفع من هذه النواحى

الثلاث شطر حاضرة الخلافة فتستحكم حلقتها بالمدينة حول دار عثمان . وهذا التخاذل يدب إلى قلوب النصراء كما يؤلف التناصر بين قلوب الاعداء . وهذا عثمان نفسه يطل على الثوار وينصح لهم ، ولكن أنى لصوته الخافت الضعيف أن يعلو ضوضاء الجماهير وقعقعة السلاح . ثم يشتد الخطب ويعظم البلاء ويمنع خليفة الإسلام الماء . ولكن القوم الذين بلغوا من التدنى والنذالة مكانا قصيا أبو إلا أن يذهبوا إلى أبعد منه . لقد اشتمت الذئاب الضارية ريح فريستها وهيهات أن تنصرف أو تلغ فى دمها وتطعم من لحمها . هاهم أولاء يحرق بعضهم على عثمان باب داره ، فى حين أن بعضا آخر يتسور الجدران ويقتحم الدار . وماذا يرون ؟ يا لله ! يرون شيخا فات السبعين من عمره ، أعزل من السلاح قد انتحى مكانا من غرفته الهادئة يقرأ القرآن ، وبالقرب منه زوجه « نائلة بنت الفرافصة » تؤازره فى بلواه . فما يتخشع المجرمون لذلك المنظر الساذج المهيب ، بل يتقدمون إليه بأقدام ثابتة ويعملون فيه سلاحهم . حتى إذا همت الزوجة البارة بالذود عن زوجها لم يتحرج أحدهم أن ينفح يدها بالسيف نفحة أطنت أصابعها . وهكذا احتسى القوم كأس النذالة حتى الصبابة . ثم آبوا شر مآب ؛ على أن الرواية لم تتم فصولا : فالحروب الطاحنة التى انتشبت بعد بين المسلمين إنما كانت انتقاما عدلا للخليفة المظلوم . لقد تفرقت جماعة الأمة ، ويد الله إنما تكون مع الجماعة ما دامت مجتمعة ، فإذا تفرقت فيد الله عليها تذيقها وبال تفرقها .

تلك عظة بالغة ومجال للشعر قد لا نجد له مثيلا غير مقتل يوليوس قيصر فى الزمن القديم ، ومقتل قيصر روسيا فى أعماق سيبيريا فى أيامنا هذه ؟

أبو ذر الغفارى[1]

العربى القديم من أبسط الناس طبيعة ، وأوضحهم سريرة ، وأصرحهم لسانا ، وأشدهم استمساكا بما يراه الحق ، وأعظمهم حمية أن يجرى عليه ذل أو ضيم . ثم هو من أكثر الناس قناعة ، وأرضاهم من حطام الدنيا بالكفاف.

ذلك الخلق ، الذى قد لا ترضى عن بعض نواحيه النظريات الأخلاقية الحديثة ، يرجع إلى البيئة الطبيعية والاجتماعية التى نشأ العربى فى حجرها وصيغ على مثالها . فالبادية محدودة الحاجة ، ونظام القبيلة الاجتماعى إنما هو نظام الأسرة مكبرا . وكم للناس من فضائل هى وليدة بيئتهم ، وإن شئت فقل : كم من فضائل الناس ما هو مرزوق غير مجلوب ، وموهوب غير مكسوب .

ولقد جاء الدين الإسلامى مطبوعا فى جملته بالطابع العربى ، موسوما بسمته ، قد سلك إلى الحقيقتين الدينية والإجتماعية أقرب السبل ، وعبر عنهما أوجز تعبير وأبلغه . فهو من ناحية يأمر بالتوحيد المحض ، ومن ناحية أخرى يأمر بالتسوية بين الناس فى الحقوق العامة ، وبالأخذ من الدنيا بحساب .

ولكن شاء الله أن ينبعث العرب من جزيرتهم غزاة فاتحين ، وأن يحووا مواريث أمم التبس عليها أمر الحقيقتين المذكورتين ، فلم يلبث العرب أن تأثروا بتلك الأمم وانتقلت إليها أدواؤها وأصابهم ما أصابها من لبس واضطراب . فأما الحقيقة الدينية السهلة فقد صيرها غلاة الفقهاء والمتكلمين ، وأهل الأهواء

---

(١) الرسالة ، أول فبراير سنة ١٩٣٣ .

والنحل ، أمرا صعبا مستصعبا ، له ظاهر وباطن ، وقريب وبعيد .

ليس من موضوعنا أن نفيض فيها طرأ على الحقيقة الدينية فى صدر الإسلام ، ولكن موضوعنا مقصور على ما عرى الحقيقة الاجتماعية فنقول إن هذه أيضا قد ضل عنها رجال السياسة ضلالا بعيدا . فأفسدوا بضلالهم النفس العربية الساذجة ، وأبدلوها بالزهد فى الدنيا شغفا بها ، وتهالكا عليها . نعم إن أبا بكر وعمر أنفقا جهدا غير يسير فى سد ذرائع هذا الخطر ، وبدءا فى ذلك بأنفسهما . فكانا مضرب المثل فى القناعة والزهد وخشونة العيش . وحاول ثانيهما أن يحمل الناس على القصد والاعتدال ، فلم يقسم بينهم الأرض المفتوحة عنوة ، ثم زاد فمنع قريشا من الخروج إلى البلدان المفتوحة إلا بإذن وإلى أجل. فلما شكوه خطبهم خطبة قال فيها تلك المقالة التى تفيض قوة وتصميما :.. ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات من دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ! إنى قائم دون شعب الحرة فآخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار . فلما ذهب عمر لسبيله وولى عثمان تنفست قريش وسرى عنها، وأقبلت تستغل لين ذى النورين وحياءه الجم ، فانطلقت إلى الأمصار تقتنى المال الوافر والعقار الواسع والإقطاعات المترامية على ضفاف دجلة والفرات والنيل، وتتملك أرضا هى بحكم نظام عمر وقف على عامة المسلمين يشتركون جميعا فى غلته . فأثرت قريش وربلت ، وصارت إلى رفاغة عيش لم تلم لها من قبل بخيال. يحدثنا أبو الحسن المسعودى فيقول: « وفى أيام عثمان أقتنى جماعة من أصحاب النبى الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة وهى المعروفة فى هذا الوقت ... وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما علم من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين

ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وألف أمة وخططا بحيث ذكرنا من الأمصار . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ، ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت، المعروفة بالكناسة بدار الطلحتين، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك (!) وبناحية سراه (؟) أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج ؛ وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ؛ وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ما له أربعة وثمانين ألفا . وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك » . ثم يقول المسعودى « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيامه ، ولم يكن مثل ذلك فى أيام عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة » .

مهما يكن من المبالغة فى هذا النص فهو لا ريب يشير إلى حال كانت لا بد مثيرة لمعارضة جادة غير هازلة ، فالعهد بصاحب الشريعة الإسلامية وبالشيخين كان لا يزال قريبا ، ومبادىء الإسلام الديمقراطية لم تنمح بعد من الأذهان ، وقد وجد نوعان من المعارضة لهذه الحال: نوع يستند إلى العنف والقوة المادية، وكان بالأمصار الكبرى حيث الجند الذين شادوا الدولة بسيوفهم والذين أصبحوا يرون قريشا استأثرت بحقهم فى الفىء ، وبلسان هؤلاء يقول شاعر

من أهل الكوفة :-

يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار

لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

ومن هذا القبيل معارضة أهل المدينة . ولكنها كانت ذات صوت خافت عجمج، لأن المدينة لم تعد محل القوة المادية فى الدولة العربية، فقد خلفتها فى ذلك الأمصار المذكورة . والحق أن الأوس والخزرج قد أدوا الواجب الذى من أجله لقبوا « بالأنصار» ثم أخذ نجم مجدهم السياسى فى الأفول .

وأما النوع الآخر من المعارضه فكان يستند إلى الدليل الشرعى وإلى مبدأ الحق والعدالة . وهذا كان يحمل لواءه عاليا رجل قوال اللسان ، ثبت الجنان صريح فى الحق كل الصراحة : ذلك أبو ذر الغفارى .

* * *

كانت غفار من القبائل الضاربة بين المدينة ومكة ، وكانت فى الجاهلية تحترف قطع الطريق واعتراض القوافل التى تمر من أرضها ، وهى حرفة لم يكن بها بأس فى عرف ذلك الزمان . فنشأ أبو ذر نشأة أعرابية ، واتصف بما يتصف به الأعراب عادة من صدق اللهجة وصراحة القول ، ومرن على حياة البادية بما فيها من خشونة وسذاجة . ويقال إنه بقوة عقله وصفاء ذهنه أدرك ما عليه قومه من فساد العقيدة فاطرح الأوثان ووحد الإله ، وذلك قبل أن يبعث النبي ﷺ بثلاث سنين . فلما نبيء عليه السلام وبلغت أبا ذر دعوته ، وجد مشاكلة قوية بين هذه الدعوة وبين ما كانت نفسه اطمأنت إليه من قبل ، فرحل إليه من فوره وما هو إلا أن لقيه وسمع منه القرآن حتى أسلم ، وكان خامس خمسة هم الجماعة الإسلامية وقتئذ . ولقد أبى إلا أن يجهر فى مكة بدينه الجديد

فتعمدته قريش بالأذى ، ثم ذكرت أنه من قوم تمر عيرها من أرضهم ، فكفت عنه .

وعاد أبو ذر بعد ذلك إلى البادية فدعا قومه إلى الإسلام فأسلم بعضهم ، ثم أسلم سائرهم عندما هاجر الرسول إلى المدينة . وبذلك أصبحت غفار من القبائل التى ظاهرت الرسول فى محاربته قريشا . وقد لبث أبو ذر فى قومه إلى أن تمت الهجرة وانقضت أيام بدر وأحد والخندق، ثم قدم المدينة وخرج مع الرسول فى غزوة تبوك، ولزم صحبته إلى أن توفى عليه السلام فكان بذلك من أكبر رواة الحديث .

وقد وردت أحاديث تشير إلى أخلاق أبى ذر: فيروى أن النبى سمعه يقول لآخر « يابن الأمة » فقال عليه السلام «ماذهبت عنك أعرابيتك بعد» وتخلفت بأبى ذر راحلته عن الجيش فى غزوة تبوك فتركها وأدرك الجيش ماشيا وحده . فقال الرسول « . يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » وورد فيه أيضا « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر » .

وأقام أبو ذر بعد وفاة الرسول بالمدينة ، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ألحقه عمر فى العطاء بأهل بدر تشريفا لقدره وإن لم يكن منهم ، ففرض له خمسة آلاف درهم فى السنة . ثم خرج إلى الشام وغزا مع معاويه أرض الروم سنة ٢٣ هـ وجزيرة قبرص سنة ٢٧ هـ .

☆ ☆ ☆

فلما وقف تيار الفتوح العربية منتصف خلافة عثمان أقام أبو ذر بالشام فرأى ما آل اليه المسلمون من الحال التى سبق وصفها : رأى رجال الدولة تسمى الفىء مال الله توصلا بهذه التسمية الخادعة إلى الاستئثار به ، أو التصرف

فيه كما يشاءون، ورأى المجتمع قد استحال فريقين متباينين: أغنياء مترفين وفقراء معدمين . فأثارت تلك الحال حفيظة أبي ذر وهو الذى شهد دورة الفلك كاملة ، ورأى العرب فى جاهليتهم وما صاروا إليه فى خـــلافة عثمان ، فنصب نفسه لمكافحة تلك الحال مهما جر عليه ذلك ، وأعلن برنامجه فى الإصلاح . فأما الفيء فيجب أن يسمى (مال المسلمين) لا (مال الله) وأما الأغنياء فيجب أن يرد فضل أموالهم على الفقراء ، وذهب أبو ذر إلى أن المسلم « لا ينبغى له أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه فى سبيـــل الله أو يعده لكريم » ، أخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » وبذلك البرنامج أصبح أبو ذر داعية اشتراكيا صريحا . وقد شاعت دعوته فى فقراء النـاس ومحاويجهم فثاروا بالأغنياء وطالبوهم أن يشركوهم فى أموالهم ، فتوجه الأغنيـاء بالشكوى إلى أمير الشام لذلك العهد : معاوية بن أبى سفيان .

أحب معاوية قبل كل شيء أن يختبر صدق أبى ذر فيما يدعو إليه ، فبعث إليه فى جنح الليل بألف دينار ، ولما كان الصبح أرسل إليه يسـتردها بحيلة احتالها ، فوجد أبا ذر قد فرقها كلها ، فعلم معاوية أن الرجل يفعل ما يقول . فأقبل يجادله فيما يدعو إليه ، وعلى سبيل الترضية له قبل أن يسمى الفيء (مال المسلمين) بدلا من (مال الله) ، ولكن أبا ذر أصر على أن ينزل الأغنيـاء عن فضل أموالهم للفقراء ، وعبثا حاول معاوية أن يقنعه بأن الآية التى يستدل بهـا إنما نزلت فى أهل الكتاب وحدهم . وأعيا معاويه أمر أبى ذر، فجنح إلى أخذه بالشدة، فنهى الناس عن مجالسته وتهدده بالقتل، فلما لم يجد كل ذلك رفع أمره إلى عثمان فأمره بإشخاصه إليه، فأشخصه إليه على شر حال.

لم يكن أبو ذر فى المدينة بأسعد منه فى الشام، فقد حاول عثمان أن يصرفه عن دعوته ، ويريه أنه لا يملك أن يجبر الناس على الزهد وعلى أن يؤدوا غير فريضة الزكاة، وأن كل الذى يملك هو أن يدعو المسمين إلى الاجتهاد والاقتصاد، ولكن أبا ذر كان يريد برنامجه كاملا ، وولع به أهل المدينة والتفوا حوله . فرأى عثمان آخرة الأمر أن يحصر الخطر فى أضيق نطاق ممكن ، فنفى أبا ذر إلى الربذة ، وهى مكان فى البادية ناء عن المدينة ؛ والظاهر أن عثمان لم يرد أكثر من إبعاد أبى ذر عن الناس ، فالروايات تقول أنه أجرى عليه رزقا يناله كل يوم ، وأنه لم يمنعه من الاختلاف إلى المدينة من حين لآخر حتى لا يرتد أعرابيا .

لم يكن أبو ذر ثائرا ولكن طالب إصلاح أرتآه . ومما يدل على عدم نزوعه إلى الثورة أنه وهو فى منفاه مر به ركب من أهل الكوفة ممن كان منحرفا عن عثمان ، فطلبوا إليه أن ينصب راية يلتف حولها كل من كان على شاكلته وشاكلتهم ، فأبى ذلك بتاتا ونهاهم عنه . وأما مذهبه فى الإصلاح فلا شك أنه ابن بجدته ، فالإسلام لا يحظر الثروة ولا الملكية ، ولا يوجب على المسلم حقا فى ماله غير الزكاة ، وكل ما ينهى عنه الإسلام فى هذا الصدد إنما هو أن تجعل الثروة غرضا مقصودا لذاته .

وعندى أن حركة أبى ذر الاشتراكية تمت بسبب قوى إلى حركة مزدك الشيوعى الذى ظهر بفارس على عهد قباذ وكسرى أنوشروان ، والذى كاد يقلب نظام المجتمع الفارسى رأسا على عقب لولا عزم أنو شروان وحزمه . فإذا عرفنا أن اليمن خضعت لفارس قبيل الإسلام، وأن يهوديا من أهل صنعاء يعرف بابن السوداء ادعى الإسلام فى خلافة عثمان وجعل يطوف الأمصار

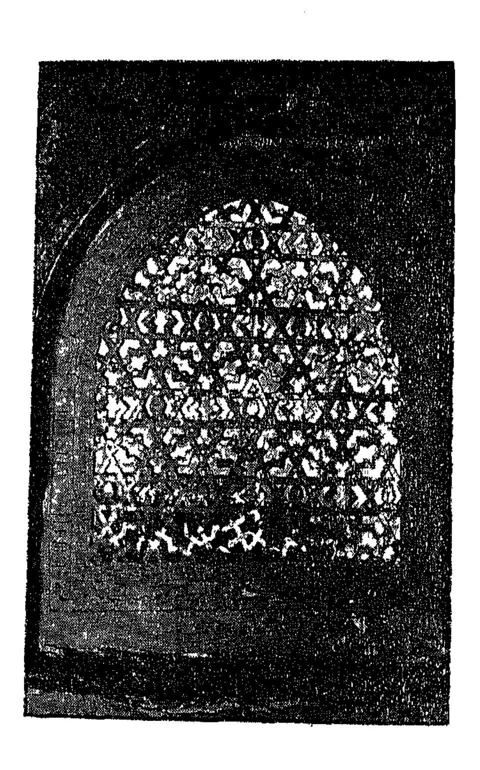
الإسلامية داعيا إلى الثورة ، وأنه هو الذى حرك أبا ذر لما آنس فيه من الميول الاشتراكية ، إذا عرفنا ذلك كله فقد وضحت الصلة بين الحركة الشيوعية الفارسية القديمة وبين الحركة الاشتراكية التى أوشكت أن تقع فى الدولة الإسلامية على عهد ثالث الخلفاء الراشدين .

* * *

لبث أبو ذر فى منفاه نحو ثلاث سنين يعانى ألم الوحشة وكبر السن وخيبة الأمل ، فلما أدركه الموت فى سنة ٣٢ هـ كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة ثباته على مبدئه حتى النهاية ، وعلى أنه حقا قد مشى وحده ومات وحده، يروى ابن سعد فى طبقاته أنه عندما حضرت الوفاة أباذر حارت امرأته فى أمرها لتوحدها فى تلك الفلاة ، فكانت تشد إلى كثيب تقوم عليه فتنظر ثم ترجع إليه فتمرضه ثم ترجع إلى الكثيب ، فبينا هى كذلك إذا هى بنفر تخدبهم رواحلهم كأنهم الرخم على رحالهم ، فألاحت بثوبها فأقبلوا حتى وقفوا عليها ، قالوا مالك ؟ قالت أمرؤ من المسلمين يموت تكفنونه . قالوا ومن هو ؟ قالت أبو ذر . ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ، ووضعوا السياط فى نحورها يستبقون إليه حتى جاءوه . فقال لهم .. لوكان لى ثوب يسعنى كفنا لم أكفن إلا فى ثوب هولى، أولامرأتى ثوب يسعنى لم أكفن إلا فى ثوبها، فأنشدكم الله والإسلام ألا يكفننى رجل منكم كان أميرا أو عريفا أو نقيبا أو بريدا . فكل القوم قد كان قارف شيئا من ذلك إلا فتى من الأنصار قال أنا أكفنك فإنى لم أصب مما ذكرت شيئا ، أكفنك فى ردائى هذا الذى على وفى ثوبين فى عيبتى من غزل أمى حاكتهما لى . قال أنت فكفنى ..... فكان ذلك الفتى الأنصارى هو الذى تولى تجهيزه، ثم دفنوه جميعا .

وهكذا انطفأ سراج هـــذه الشخصية الفذة العجيبة . إنها لاشك من تلك الشخصيات التى يقدمها الزمن عادة بين أيدى الأحداث الخطيرة إنذارا للناس وإقامة للحجة عليهم إذا لج بهم الغرور فلم يرعووا ولم يزدجروا .

على أن روح أبى ذر لم يكن ليغيب مع جثمانه فى تلك الفلاة البلقع ، فقد ظل صوته داويا إلى أن تحقق ما أنذر به المدينة من « غارة شعواء وحرب مذكار » ووقعت الفتنة الكبرى التى يقال إنها انتجت كل فتنـــة حدثت فى الإسلام . ولقد كانت غفار ممن نهض فيها وألقى فى نارها حطبا ؟



العتبات المقدسة (١)

كان يوم الجمعة الماضى من أيام ربيع العراق ، فالجو باسم طلق والهوى ندى رخاء ، وجوانب الأفق كاسية حالية بالماء والخضرة والزهر .

خرجنا فى صبيحة ذلك اليوم لنؤدى واجب الزيارة للعتبات المقدسة بكربلاء والنجف الأشرف . وكنا رفاقا أربعة ، كلهم عارف بشروط الصحبة وأدب الطريق : ثلاثة مصريون وواحد عراقى هو فى الحقيقة داعينا وهادينا فى طريقنا ، هو الشاب الأديب محمد كاشف الغطاء النجفى ، سليل آل كاشف الغطاء الغنيين بفضلهم وإفضالهم عن التنويه والتعريف .

* * *

وانطلقت بنا السيارة تطوى المنازل والمراحل طيا عجيبا ، فكأنما عراها ما عرانا من الشوق والحنين ، فهى تعدو غير متأبية ولا مستعصية ، فأذكرنى أمرها قول الشاعر العربى القديم :

لقد زارنى طيف الخيال فهاجنى ... فهل زار هذى الإبل طيف خيال ؟

لعل كراها قد أراها جذابها ... ذوائب طلح بالعقيق وضال

تلون زبوراً فى الحنين منزلا ... عليهن فيه الصبر غير حلال

وأنشدن من شعر المطايا قصيدة ... وأودعتها فى الشوق كل مقال .

---

(١) الغري ، السنة الثالثة العدد ٩٣ . النجف الأشرف ، الثلاثاء ٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦١ و ٢١ نيسان سنة ١٩٤٢ .

وإذا بنا فى أقل من ساعتين من الزمان نسير بين صفين من بساتين مونقة متصلة الظلال ، فإذا بنا فى ضواحى كربلاء .

فإذا بنا فى شوارع كربلاء ، فإذا بنا قبالة مسجد الحسين بن على ، عليهما السلام .

كل شيء فى كربلاء فيه مشابه من سيد شباب أهل الجنة : مياه جارية ، ورياض ناضرة ، وبلدة آمنة مطمئنة ، ومسجد خفيف الروح ، وجيران أريحيون كرام ، ولكن ذلك الجمال كله ملفوف فى غلالة سوداء لا تبين إلا لعين الناظر المتوسم ، فإذا تبينتها هاجت به لواعج أسى دفين لم يملك معها حسرة النفس وابتدار الدموع .

* * *

ومال ميزان النهار وأخذت أشعة الشمس الفضية تتحول خيوطا عسجدية اللون زادت معالم كربلاء جمالا كاسفا حزينا . فاستأذنا مضيفينا الكرام فى متابعة السفر إلى النجف الأشرف فأذنوا .

وراحت السيارة تعدو بنا عدو الظليم، فى قفار يابسة جرداء قاحلة ، ليس بها من أنيس سوى الضباب وكأنها ريعت من دبيب السيارة فهى تسرع إلى أجحارها مستعيذة بالله من بغى الإنسان وعدوانه. وبينما نحن تتقاذفنا تلك المهامه الفيح إذ رفع لنا على حافة الأفق الجنوبى ما يشبه أن يكون نجما متوقدا ، فسألنا عنه دليلنا الخريت ، فقال : تلكم قبة مسجد الإمام .

وما أسرع ما أسلمتنا البيداء إلى مقبرة النجف الأشرف ، فإذا نحن عند ربوة عالية يقوم عليها مسجد أمير المؤمنين وضريحه وقبته المذهبة الذاهبة فى السماء . هنالك ترجلنا وسعينا على الأقدام إلى المسجد، فدخلناه مخبتين خاشعين .

« السلام عليك أبا حسن ! طبت حيا وميتا ! أما والله لست أعلم ميتا غيرك لم تنل يد الموت من شمائله ونفحاته قليلا ولا كثيرا ! ها أنت ذا منفرد وحيد بذلك القفر ، ولقد كنت كذلك منفردا وحيدا فى حياتك، شأن كل قوال للحق عمال به فى هذه الدنيا ! ها أنت ذى على تلك الربوة عال على لحظ العيون ، كذلك كنت فى حياتك عاليا بإيمانك وتقاك وزهدك على نقد الناقدين وتنقص المتنقصين ! وها هى ذا رياض الفرات وغياضه تتراءى لك من بعيد كما كانت الدنيا تتراءى لك بزخرفها وبهرجها ، وها أنت ذا كأنك تصدها كما كنت تفعل قائلا : يا دنيا عرى غيرى ! وها هى ذى نفائس الأعلاق وكرائم الأموال قد سيقت إليك وكدست عند قدميك تقدمة لك من مواليك ومحبيك ، وها أنت ذا كأنك تنحيها عنك بلطف وتقول كما قلت يوم دخلت بيت المال : ياصفراء ويا بيضاء غرى غيرى ! وها هى ذى جموع الوافدين حولك كأنهم ينصتون إلى خطبة من خطبك الجليلة الرائعة ، وكأنما أنت تخطبهم كما كنت تخطب فى الحياة سامعيك فتدمى القلوب وتبكى العيون . وحتى علمك وفصاحتك وجودك ولطفك لم تزل منها أثارة فى جيرانك الأحياء الذين اختاروا جوارك والنزول فى رحابك .

وانتبهت من أحلامى على دعوات الداعين وحفاوة المحتفين من أهل النجف الأشرف، فخرجنا من حضرة أمير المؤمنين، وما زلنا ننعم بلطف أهل النجف ونقتبس من علمهم وأدبهم حتى لم يبق من الليل إلا قليل .

* * *

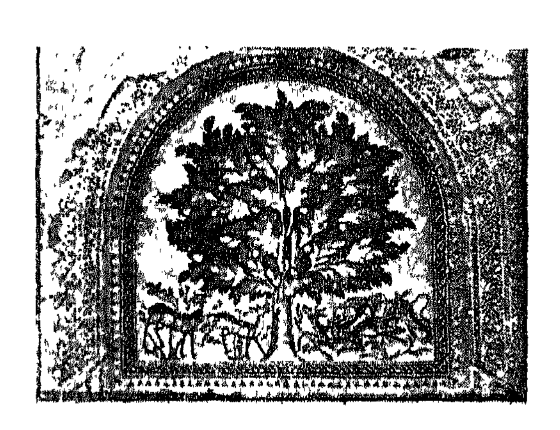
وانحدرنا فى الصباح إلى الكوفة فوقفنا على ديارها البلاقع وأطلالها

الدوائر فتلوت قوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين . »

* * *

وبرحنا الكوفة نريد بغداد ، فلم نعرج فى طريقنا اليها إلا على الحلة الفيحاء، تلبية منا لدعوة فاضل من فضلائها أبى إلا أن نطعم من زاده، ثم استأنفنا السفر فبلغنا بغداد وقت الغروب فألفيناها كعهدنا بها : هائجة مائجة ، ساحرة فاتنة ، فقلت لأصحابى : رجعنا إلى الدنيا ؟

بغداد فى ١٦ نيسان سنة ١٩٤٢



الأب لامانس[1]

والحكومة الإسلامية الأولى

إن الأيام بل الساعات القلائل التى مرت بالمسلمين عقب وفاة النبى ، عليه السلام ، هى لا شك أدق ظرف مر بهم فى تاريخهم ، على كثرة ما شهد ذلك التاريخ من ظروف دقيقة عصيبة ؛ ذلك بأنه فى تلك الساعات المعدودة كانت الشريعة الإسلامية التى ظل الرسول سنين طويلة يعمل على تثبيت قواعدها وإدخالها على قلوب العرب ، معرضة لأشد الاخطار؛ كما كانت الوحدة السياسية التى قضى النبى طوال العصر المدنى من حياته يعمل على تكوينها وإحكامها ليمكن لدعوته الدينية ، هى أيضا معرضة لخطر التفكك والانتقاض . ولكن ما هى إلا تلك الأيام أو الساعات القلائل حتى نجت من الضياع قضية الإسلام وقضية الدولة الإسلامية ، وافتتح كل منهما عصرا جديدا لا يزال إلى اليوم إحدى أعاجيب التاريخ ومن دواعى حيرة المؤرخين . تلك الأيام أو الساعات هى التى عبرها المهاجرون والأنصار بسقيفة بنى ساعدة بالمدينة والتى اشتد أثناءها الخلاف بين الفريقين حتى خيفت الفتنة ، ثم آل أمرهما جميعا إلى إنتخاب أبى بكر خليفة لرسول الله على المسلمين ، وإلى قيام الخلافة الإسلامية بشكلها الديمقراطى المعروف .

---

(١) الثقافة ، العدد ٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

* * *

وبعد فللأب لامانس المستشرق اليسوعى المعروف بسعة اطلاعه على آداب العصر الجاهلى وتاريخ العصر الإسلامى الأول نظرية[1] غريبة تتعلق بشكل الحكومة الإسلامية التى قامت يوم السقيفة واستمرت طوال عهد الشيخين .

فهو يرى أن تلك الحكومة كانت حكومة ثلاثية من طراز النظام الثلاثى المعروف فى التاريخ الرومانى فى طور الانتقال من الجمهورية إلى الامبراطورية Triumvira ، وأن قوام هذه الحكومة ثلاثة من كبار الصحابة : هم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وأن هؤلاء إجتمعت كلمتهم فى أواخر حياة النبي على أن يحتكروا الحكم بعد وفاته عليه السلام ، ويتداولوه واحدا بعد واحد ، وأن اثنتين من أزواج النبي ، هما عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، مهدتا لهم السبيل إلى ذلك ، وأن هذه المؤامرة قد نجحت إلى حد بعيد . إذ أيد عمر وأبو عبيدة أبا بكر يوم السقيفة ، وفاز أبو بكر بالخلافة ، وقد عاونه صاحباه فى الحكم . فكان عمر على القضاء وأبو عبيدة على الفيء . فلما حضرت الوفاة أبا بكر عهد إلى عمر من بعده . ثم إن عمر رشح أبا عبيدة للخلافة من بعده ، بأن ولاه القيادة العليا لجيوش الشام . غير أن أبا عبيدة توفى فى حياة عمر ، فخبط مشروع الحكم الثلاثى ، وكان من وراء ذلك أن رجع المسلمون إلى الشورى التى حرموا منها فى استخلاف أبى بكر وعمر !!

* * *

---

(١) انظر المجلد الرابع من المجلة المسماة Mélange de la Faculté Orientale Beyrout.

ونحن مع احترامنا لعلم الأب لامانس واطلاعه نقول إن نظريته هــذه لا تقوم على أساس تاريخي متين .

أولا — لأن المصادر القديمة الموثوق بها لا تذكر شيئا من هذا القبيل ، فالطبري والبلاذري اللذان استوعبا كل ما أمكنهما استيعابه من الأخبار المتعلقة بقيام الخلافة العربية ، لا يأتيان بخبر واحد يؤيد من قريب أو بعيــد نظرية الأب لامانس .

ثانيا — إن الأحاديث التي يستشهد بها الأب لامانس أغلبها من الأحاديث المروية في مناقب الصحابة وخصائصهم . وهذه ينبغي أن تؤخذ بتحفظ تام ، وربما كان من واجب الباحث ألا يستشهد بها في مقام البحث العلمي الصريح ، ذلك بأن معظمها لا شك موضوع ، وأن السبب في وضعه يرجع إلى حالة الأحزاب السياسية إبان العصر الأموي وصدر العصر العباسي .

ثالثا — إن الأب لامانس يهمل كل الإهمال الرواية التي تشير إلى الذهول الذي أصاب عمر بن الخطاب عقب وفاة النبي ، وقد لحظ صديقنا الدكتور السنهوري بك في كتابه (الخلافة) قيمة هذه الرواية ، ولكنه لا يعلق عليها الأهمية التي نعلقها نحن . ولبيان هذه الأهمية نثبت نص الرواية كما ساقها ابن اسحق :

قال ابن اسحق : «قال الزهري وحدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعــين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع

موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات » .
وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبله . ثم قال : بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . قال ثم رد البردة على وجه رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رسلك ياعمر ! أنصت ! فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» قال ثم تلا هذه الآية : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . قال فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر فإنما هى فى أفواههم . قال فقال أبو هريرة : قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » .

فالقارىء يرى أن هذه الرواية العالية الإسناد من الأهمية بمكان ، فهى تتعلق بإثبات نص من نصوص القرآن . وهى من أجل ذلك بعيدة عن أن تكون مختلقة ، والمناسبة التى وردت فى صددها لا شك صحيحة .

إذا كيف نوفق بين عمر المؤتمر ، على رأى لامانس ، وعمر الذاهل لموت

الرسول كل هذا الذهول كما تدل الرواية المذكورة ؟

* * *

وبعد فإن القول بائتمار أبي بكر وعمر قديم غير حديث ، فقد قال به روافض الشيعة منذ ظهرت الأحزاب السياسية بشكلها التاريخي في صدر الإسلام ، فزعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان « لا أبا عبيدة كما يرى لا مانس » قد ائتمروا ببني هاشم وغصبوهم حقهم في الخلافة . ولا أدل على حدوث هذا الزعم من شعر السيد الحميري الذي يفيض مدحا لبني هاشم وذما للخلفاء الثلاثة الأوائل. روى صاحب الأغاني[1] قال : جلس المهدي يوما يعطي قريشا صلات لهم وهو ولي عهد ، فبدأ ببني هاشم ثم بسائر قريش ، فجاء السيد فرفع إلى الربيع رقعة مختومة ، وقال إن فيها نصيحة للأمير فأوصلها إليه ، فأوصلها فإذا بها :

قل لابن عباس سمي محمد	لا تعطين بني عدي درهما
واحرم بني تيم بن مرة إنهم	شر البرية آخرا ومقدما
إن تعطهم لا يشكروا لك نعمة	ويكافئوك بأن تذم وتشتما
وإن ائتمنتهم أو استعملتهم	خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتهم لقد بدأوكم	بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلما
منعوا تراث محمد أعمامه	وبنيه وابنته عديلة مريما
وتأمروا من غير أن يستخلفوا	وكفى بما فعلوا هناك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه	أفيشكرون لغيره إن أنعما ؟
والله من عليهمو بمحمد	وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبروا لوصيه ووليه	بالمنكرات فجرعوه العلقما

(١) ج ٧ ص ٩

قال : وهى قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح ما فيه . قال : فرمى بها إلى أبى عبيد الله ثم قال : اقطع العطاء ! فقطعه ، وانصرف الناس ، ودخل السيد إليه ، فلما رآه ضحك وقال : قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل ! ولم يعطهم شيئا » .

وقال الشهرستانى فى الملل والنحل فى كلامه على المغيرية إحدى فرق غلاة الشيعة : إن زعيمها المغيرة بن سعيد العجلى كان يزعم أن أول ما خلق الله هو ظل محمد وعلى قبل ظلال الكل ، ثم عرض على السموات والأرض أن يحملن الأمانة ، وهى أن يمنعن على بن أبى طالب من الإمامة ، فأبين ذلك ، ثم عرضها على الناس، فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن أن يعينه على الغدر به . على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده ، فقبل منه، وأقدما على المنع متظاهرين، فذلك قوله تعالى « وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا »[1]

فالأب لامانس لم يزد على أن أخذ نظر روافض الشيعة وغلاتهم إلى قيام الخلافة ، وبنى عليها بحثه الخاص بشكل الحكومة الإسلامية الأولى ، وهى بعد وجهة نظر ليست لها قيمة علمية على الإطلاق ؟

(١) ابن حزم ج ٢ ، ص ١٤ .

زياد بن أبى سفيان [1]

(١)

إذا عد رجال الدولة العربية من أهل السياسية ، كان زياد بن أبى سفيان من غير شك علماً من أعلامهم وقطباً من أقطابهم ، بل لعل زياداً الرجل الوحيد الذى أخذ عن عمر بن الخطاب مبدأ القوة فى غير عنف واللين فى غير ضعف ، وحاول العمل به بقدر ما وسعت ذلك الظروف القاسية التى عاش فيها . وإذا عد رجال الإدارة الذين نقلوا الدولة العربية من حال السذاجة الإدارية التى كانت عليها زمن الخلفاء الأربعة ، وأعطوها طابع الدولة المستقرة المنظمة ، فزياد لا يكاد يلحق به رجل آخر فى ذلك المضمار .

* * *

ولد زياد بالطائف فى السنة الأولى للهجرة من أب قرشى هو أبو سفيان على المشهور المتعارف ، ومن أم فارسية الأصل تسمى سمية كانت مولاة الحارث بن كلدة المعروف بطبيب العرب . وتعلم فى كتاب من كتاتيب الطائف القراءة والكتابة والحساب ، فنشأ قارئاً كاتباً حاسباً . ثم اعتنق الإسلام فى أغلب الظن عند ما أسلمت ثقيف برمتها فى سنة تسع للهجرة ، وإن كان بعض الروايات يجعل إسلامه سابقاً على ذلك . فلما كانت سنة ١٤ للهجرة ووجه عمر عتبة بن غزوان إلى الأبلة وجنوبى العراق ليكون ردءاً لسعد بن أبى وقاص ، كان الفتى زياد

(١) الثقافة .

فيمن انتدب للخروج معه وكان هو الذى يقسم لهم الغنائم ، وأجروا عليه كل يوم درهمين . ثم ولى لسعد ديوانه فكان هو الذى يكتب الناس ويدونهم، فلما فتحت جلولاء سنة ١٦ بعث سعد بأخماس الغنائم إلى عمر وبعث بالحساب مع زياد وكلفه استئذان الخليفة فى الانسياح فى أرض فارس . فلما قدم الوفد المدينة كلم زياد عمر فيما جاء له ، وأعجب الخليفة الكبير بذكاء الفتى الناشىء وفصاحة لسانه ، وقوة جنانه ، وأحب أن يستزيد من اختباره فسأله : « هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به » . فأجاب الفتى . والله ما على وجه الأرض رجل أهيب فى صدرى منك ، فكيف لا أقوى على هذا مع غيرك ؟ » فلما كان الغد قام فى الناس فتكلم بما أصابوا من الغنائم وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى بلاد فارس، فازداد عمر إعجابا به وقال: « هذا الخطيب المصقع» ولم يكن الإعجاب قاصرا على عمر ، بل لقد أعجب بزياد من سمعه يومئذ من أكابر الصحابة ، فقال عمرو بن العاص : «لو كان هـــذا الفتى من قريش لساق العرب بعصاه! » فيقال إن أبا سفيان همس فى أذنه بقوله إنه هو أبوه الذى ولده حقا . ثم عاد زياد بعقب ذلك إلى العراق . فلما مصرت البصرة سنة ١٦ هـ نزلها زياد فيمن نزلها من ثقيف ، واتخذها مقرا مدى حياته بوجه عام . ولما ولى عمر المغيرة بن شعبة على البصرة سنة ١٦هـ ورمى المغيرة بما رمى به ، وهم عمر برجمه لم ينجه من الهلاك إلا شهادة شهدها زياد ولم يقطع فيها ، فكانت تلك الشهادة سبباً فى درء الحد عنه . وقد حفظ المغيرة لزياد تلك اليد مدى حياته وانعقدت بينهما من ذلك الوقت أواصر المودة والصداقة .

ولما طعن أهل البصرة على أميرهم ، أبى موسى الأشعرى سنة ٢٣ ، كان مما احتجوا به عليه عند عمر أنه فوض أمر البصرة إلى زياد وهو بعد فتى حدث ،

ليست له سن ولا تجربة ، يريدون زيادا . فرد عليهم أبو موسى بقوله : « إنى وجدت له نبلا ورأيا ، فأسندت اليه عملى » وقد قبل عمر قول أبى موسى متأثرا لاشك بالصورة التى كانت لزياد فى ذهنه ، ولكنه أحب أن يتحقق بنفسه إلام صار أمر ذلك الشاب فى مدى سبع سنوات ، فأمر أباموسى أن يشخص إليه زياداً . وقدم زياد على عمر قدمته الثانية وقام بباب عمر . فلما خرج عمر وجد شابا حسن الهيئة ، له ذؤابة . وعليه ثياب بيض من كتان ، فابتدره بقوله: ماهذه الثياب ؟ فأخبره زياد ، فقال : كم ثمنها ؟ فأخبره زياد بشيء يسير ، وصدقه عمر . ثم قال له : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال ما صنعت فى أول عطاء خرج لك ؟ قال : اشتريت والدتى فأعتقتها ، واشتريت بالثانى ربيبى عبيداً فأعتقته . قال الخليفة : وفقت ! ثم اختبر عمر قدرته على الكتابة فأمره أن يكتب فى معنى واحد ثلاثة كتب مختلفة العبارة ، فكتب زياد ثلاثة كتب بليغة أعجب بها عمر ، ثم سأله عن الفرائض والسنن والقرآن فوجده فقيهاً ، فرده إلى البصرة وأمر أمراءها أن يسيروا برأيه . وكذلك لم تخب فراسة عمر فى ذلك الشاب مذ رآه عند قدومه عليه بأخماس جلولاء لسبع سنوات خلت ، ولم تزده الأيام إلا ثقة به واطمئناناً إليه ، كما أن هاتين القدمتين غرست لذلك الخليفة فى قلب زيادا إكبارا وتجلة جعلته يرى فيه مثله الأعلى الذى يتأثره ويقتدى به .

ولما شخص عبد الله بن عامر عامل البصرة من قبل عثمان إلى خراسان غازيا سنة ٣١ هـ استخلف على البصرة زياداً ، فقام بأمرها فى غيبته خير قيام على صعوبة حكم ذلك المصر فى تلك الأيام .

فلما اضطربت أمور الدولة الإسلامية بالفتنة التى انتهت بمقتل عثمان ، واستخلف على بن أبى طالب ، وخرج عليه أهل البصرة مع عائشه وطلحة

والزبير ، لم يحرك زياد فى تلك الفتن ساكناً ، ولم يخض فيها مع الخائضين ، ولا ألقى فى نارها حطباً ، بل أعتزل الفريقين كما فعل كثير غيره ، وأقام مستخفيا فى بعض دور البصرة ينتظر عم تنجلى الأمور . ولم يكن أمر زياد خافياً على على ، فإنه بعد أن ظفر بخصومه فى وقعة الجمل سنة ٣٦ وجاءه عبد الرحمن ابن أبى بكرة ، وهو أبن أخى زياد لأمه ، مستأمناً مبايعاً ، قال له على : وأين عمك المتربص المتقاعد بى ؟ . فقال : والله ياأمير المؤمنين إنه لك لواد . وإنه على مسرتك لحريص ، ولكن بلغنى أنه يشتكى ، أفأعلم لك علمه ثم آتيك ؟ وكتم علياً مكانه حتى استأمر زياداً فأمره أن يعلمه بمكانه فأعلمه . فقال على : إمش أمامى فاهدنى إليه ! ففعل . فلما دخل عليه قال: تقاعدت عنى وتربصت! ووضع يده على صدره وقال : هـــذا وجع بين !! فاعتذر إليه زياد ، فقبل عذره . ثم استشاره على وأراده على إمرة البصرة ، فامتنع زياد من قبولها وقال : بل رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس ... وسأكفيه وأشير عليه . وافترقا على عبد الله بن عباس . إلا أن علياً ولى زياداً خراج البصرة وبيت مالها ، وأمر ابن عباس أن يسمع منه .

من ذلك الوقت أصبح زياد من أشد عمال على إخلاصاً له ، وقد لبث على إخلاصه وولائه له إلى أن أنتهت حياة على نفسه . ويتضح هذا الإخلاص فى حادثين وقعا فى ذلك الوقت فى أهم النواحى التابعة لعلى ، فى البصرة وفارس ، وهما يبينان مقدرة زياد ودهاءه وسعة حيلته . أما حادث البصرة فذلك أنه لما قتل محمد بن أبى بكر بمصر سنة ٤٩ هـ واضطرب الأمر على على خرج إليه بالكوفة عبد الله بن عباس بعد أن استخلف زياداً على البصرة . ودهم زيادا غداة رحيل ابن عباس أمر عظيم، فإن معاوية أنفذ إلى البصرة عبد الله بن

الحضرمى ناعياً مقتل عثمان ومحركا لأهل البصرة على على . ونظر زياد فوجد نفسه فى قلة وأن أمر البصرة يوشك أن يذهب من يده . فأعمل الرأى والحيلة ولما كان ابن الحضرمى قد نزل فى بنى تميم فإن زياداً أسرع فنزل ومعه الأموال فى قبيلة الأزد المعادية هى وحليفتها بكر بن وائل لتميم . وكان لنزوله فى الأزد معنى التحرم بالجوار المقدس عند العرب ، فقد تكفلت الأزد بالذود عنه كائنا ما كان الأمر . وكتب زياد إلى على يخبره بالحال ويستمده . فصوب على رأيه وأنفذ اليه مدداً مع جارية بن قدامة السعدى التميمى . وقد استطاع جارية أن يردقومه عن متابعة ابن الحضرمى ثم سار إلى ابن الحضرمى فقضى عليه وعلى أصحابه ، ورجع زياد إلى دار الإمارة موفور النفس والمال .

أما الحـــادث الآخر فخلاصته أنه عند ما اضطرب الأمر على على طمع الفرس فى استعادة استقلالهم ، فمنعوا الخراج واضطرمت فارس نارا . فأشار ابن عباس على على أن يولى زياداً على فارس وكرمان ففعل . قال الطبرى :«ولما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه، وخوف قوماً وتوعدهم، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة ، وأقامت طائفة فقتل بعضهم بعضا. وصفت له فارس ، فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً وفعل مثل ذلك بكرمان . ثم رجع إلى فارس فسار فى كورها ومناهم فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد ، وأتى اصطخر فنزلها وحصن قلعة بها ... فكانت تسمى قلعة زياد ، فحمل إليها الأموال سنة ٤٠ هـ » .

ولقد أثنى عليه الفرس إذ ذاك فقالوا : ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى .

والظاهر أن زياداً لم يحصن قلعة اصطخر ويحمل اليها الأموال لمجرد التحصن

فيهما من العجم إذا ساوروه مرة أخرى ، بل كان يرمى فوق ذلك إلى غرض آخر : لقد رأى بثاقب ذهنه وبعيد نظره أن الصراع العنيف الناشب بين على ومعاوية منته لا محالة بغلبة معاوية ، ورأى فى الوقت نفسه أنه قد سار أمداً بعيداً فى إحفاظ معاوية بأخذه جانب على ، هذا إلى مضاضة كان يحسها فى قرارة نفسه تجعله لا يسارع إلى معاوية إذا تم الأمر له . فأولى له أن يحتاط لنفسه إذا ماوقع المحذور ، فيتحصن فى مكانه الحريز وبين أظهر الفرس الذين غدوا معجبين به أيما إعجاب ، ثم يفاوض معاوية وهو فى حصنه ويساومه مساومة الند للند ولا ينزل إليه إلا على شروط يمليها هو عليه .

وقد صدقت فراسة زياد ، ولكن على نحو ما كان يخطر له ببال ، ففى عام ٤٠ قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وأصبح زياد ومعاوية فى حقيقة الأمر وجهاً لوجه . وهنا نجد رجلين متعاديين عداء غريباً . كلاهما لم يتعمد جناية على الآخر ، ومع ذلك فمسافة الخلف بينهما شديدة البعد . كلاهما بعيد النظر واسع الحيلة عظيم الدهاء ، إلا أن معاوية من غير شك أعظم الرجلين دهاء وأوسعهما حيلة . وكان معاوية بالطبع هو البادىء بفتح باب المفاوضة والمراوضة ، فقد كتب بعد مقتل على إلى زياد يتهدده ويتوعده ، ويعرض فى الوقت نفسه بولادة أبى سفيان له . فلم يسع زياداً إلا أن يكشف له القناع ويصرح له بحقيقة موقفه منه ، فقام فى الناس خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الأكباد وكهف النفاق ورئيس الأحزاب ، كتب إلى يتهددنى وبينى وبينه ابنا عم رسول الله فى تسعين ألفاً واضعى سيوفهم على عواتقهم لا ينثنون ، لئن خلص إلى الأمر ليجدنى أحمر ضراباً بالسيف ! . وكذلك أعرض زياد ونأى بجانبه معللا نفسه بأنه لا يزال بينه وبين معاوية الحسن بن على وعبد الله بن

عباس . وأتبع وعيده بأن انتقل إلى القلعة ومعه الأموال وامتنع بها ، وذلك سنة ٤١ هـ .

ولكن فراسة زياد لم تصدق هذه المرة ، فسرعان ما نزل الحسن عن حقه فى الخلافة لمعاوية، وقدم معاوية الكوفة لينهى أمر العراق والمشرق جميعا، وخلا ما بين زياد ومعاوية مرة أخرى . وعاد معاوية يجاذب زيادا الحبل ولكن فى غير تهديد ولا وعيد . فكتب إلى زياد يستقدمه ليحاسبه على ما فى ذمته من مال الدولة ، وجعل له الخيار بعد ذلك فى أن يقيم عنده أو يعود إلى مكانه . ولكن زياداً أصم سمعه عن تلك الدعوة الخلابة . فلم يسع معاوية عند ذلك إلا أن يلجأ إلى العنف حين لم يجد اللين والرفق ، فأمر بسر بن أرطاة عامله على البصرة بأخذ الأكابر من أولاد زياد وحبسهم ، كما أمر المغيرة بن شعبة ، عامله على الكوفة ، بالشخوص إلى البصرة واستصفاء أموال زياد التى كانت فى يد عبد الرحمن بن أبى بكرة ، وتعذيب عبد الرحمن إن امتنع من أدائها . ولكن زيادا لم تلن قناته إزاء هذا الجد من معاوية فى أمره . وهم بسر بأن يقتل أبناء زياد فعلا لولا أن تدخل فى الأمر أخوه لأمه أبو بكرة ، على ما بينه وبين زياد من جفاء قديم يرجع إلى الشهادة التى شهدها زياد فى حادث المغيرة . فقد شفع فى أبناء زياد لدى معاوية فشفعه فيهم ، وكتب إلى بسر بأن يخلى سبيلهم .

واهتم معاوية لأمر زياد وضاق به ذرعاً . وبينا الحال كذلك إذا برجل يثق به معاوية ولزياد عنده يد مشكورة ، ومنة مذكورة ، يتطوع للسفارة بين الرجلين ، ويصل ما انقطع بينهما . ذلك الرجل هو المغيرة بن شعبة . قالوا إنه دخل يوماً على معاوية وهو بالكوفة فقال معاوية حين وقع نظره عليه :

إنما موضع سر المرء إن ... باح بالسر أخوه المنتصح

فإذا بحت بسر فإلى ... ناصح يكتمه أو لاتبح

فقال: يا أمير المؤمنين! إن تستودعنى تستودع ناصحاً شفيقاً ، ورعاً وثيقاً ، فما ذاك ؟ . قال : قد ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس وامتناعه بها ، فلم أنم ليلتى ؛ فأراد المغيرة أن يهون من شأن زياد فقال : ما زياد هناك ! فقال معاوية : داهية العرب ، معه الأموال ، متحصن بقلاع فارس ، يدبر ويربص الحيل . ما يؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت ، فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعة ؟ قال المغيرة . أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى إتيانه ؟ . قال : نعم! فأته وتلطف له ! . فأتى المغيرة زياداً وأعلمه بنزول الحسن عن الأمر ، وأن الأولى له أن يصل حبله بحبل معاوية . وما زال به حتى جنح زياد إلى السلم ، وأخبره بأنه شاخص إلى معاوية .

قدم زياد على معاوية بدمشق فى سنه ٤٣ ، ورفع اليه حساب فارس ، فأحسن معاوية لقاءه وصدق كل ما قال ، ثم أنزله الكوفة كما طلب . إلا أنه لم يركن اليه كل الركون فقد كتب إلى المغيرة يأمره بأن يأخذ زيادا ورءوس أصحاب على بالكوفة ، كحجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق بحضور صلاة الجماعة ، فكانوا يصلونها معه .

بيد أن معاوية كان أدهى من أن يقف فى أمر زياد عند هذا الحد. لقد أراد أن يستخلصه ويجتذبه إلى جانبه جملة، وبذلك يتيسر له الانتفاع بكفايته ومواهبه العظيمة . ورأى أن هذا الأمر لا يتم إلا إذا محا من نفس زياد ما كان يحس من المضاضة ، بأن يعلن على رؤوس الأشهاد صحة ما كان يتهامس به الناس من نسبة زياد إلى أبى سفيان . وتفصيل ذلك أن زيادا كان حتى ذلك الوقت لا يعرف له أب على التعيين ، فبعضهم كان ينسبه إلى عبيد ، وهو عبد رومى كان للحارث بن كلدة ، وبعضهم ينسبه إلى أبى سفيان ، وبعضهم ينسبه إلى أمه

فيقول زياد بن سمية ، وبعضهم يسميه زياد بن أبيه أياكان ذلك الأب . إلا أن ذلك الغموض فى النسب لم يلحق زيادا منه سبة ولا عار ، فقد بلغ أسنى المراتب كما رأينا ، وهذا مما يدل على سماحة السياسة فى ذلك الزمان وسعة أفقها . فما كان من معاوية إلا أن أخذ بإقرار أبى سفيان الذى سبقت الإشارة اليه ، وبشهادة شهود شهدوا ببنوة زياد لأبى سفيان ، وأعلن فى الآفاق أن زياداً أخوه لأبيه.

ولقد أثار معاوية بعمله هـــذا دهشة الرأى العام ، وامتعاض بنى أمية ، وسخط بعض رجال الفقة والحديث ، أمثال ابن عمر وسعيد بن المسيب ، فقد نظروا إلى المسألة نظرة ضيقة ، ورأوا فيها مخالفة لقضاء رسول الله الذى قضى بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر . وغاب عنهم جميعاً أن معاوية إنما طرد فى هذه المسألة التى وقعت وقائعها الأصلية قبل إسلام أبى سفيان ، حكم الاسلام بصحة أنساب الجاهلية الصادرة عن نظمهم فى الزواج ، وإن لم يقر هذه النظم وعدها سفاحا . فكان لمعاوية فى الأمر نظر أوسع من نظرهم وتقدير أبلغ من تقديرهم . أضف إلى ذلك أنه سياسى يتوخى الصالح العام ، وكان الصالح العام يقضى باصطناع تلك الشخصية الفذة والانتفاع بها فى إدارة الدولة .

ولقد كان معاوية مرتاح الفكر والضمير إلى ما عمل ، فعند ما فشت القالة واشتد النكير عليه ، قام فى الناس فقال : « أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية ، وأن الإسلام لم يزدنى إلا عزا ، وإنى لم أتكثر بزياد من ذلة ولكن عرفت حقا فوضعته موضعه » ألا إن يكن معاوية قد أظهر فى هذه المسألة شيئا ، فقد أظهر شجاعة أدبية نادرة المثال ، وسعة فكر لا يقاس بها ضيق فكر الخليفة المهدى العباسى الذى أمر فى سنة ١٦٠ بإخراج آل زياد من ديوان قريش وردهم إلى ثقيف ؟

زياد بن أبى سفيان[1]

(٢)

كانت دعوة معاوية زيادا فى سنة ٤٤ ، وسرعان ما عرضت الظروف التى رأى معاوية أن ينتفع فيها بكفاية أخيه الجديد ومواهبه . ذلك بأن البصرة قد اختلت أمورها اختلالا كبيرا ، فكثر فى نواحيها عيث الخوارج ، والتلصص وقطع الطرق ، وفشت فى البلد نفسه الآفات التى تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة إلى الحضارة والترف ، فكثر الفسق وشاع الفجور . وزاد الطين بلة تعصب القبائل بعضها على بعض ، مما جعل البلد يحيا حياة جاهلية إلى حد بعيد . ولقد عجز من ولاهم معاوية أمر البصرة عن إصلاح تلك الحال ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى رجل حازم عليم بالسياسة والادارة يضع الأمور فى مواضعها ، ويرد فساد ذلك المصر إلى صلاح . ولم ير معاوية أقدر على الاضطلاع بذلك العبء الجسيم من زياد ، فولاه فى سنة ٤٥ على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الأبلة وما إليها .

رأى زياد أن الحال تقتضى حزما وعزما وشدة فى بعض المواطن وصرامة ، ولكنه جهد فى أن يعمل بالسياسة العمرية القديمة ، سياسة الشدة فى غير عنف واللين فى غير ضعف ، وإن يكن قد طبقها تطبيقا حرفيا دقيقا فى حالات معدودة قصد الإرهاب وقذف الرعب فى نفوس المفسدين ، وقد وضع لسياسته برنامجا

---

(١) الثقافة ، العدد ٢٦٠ ، ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٣ .

أعلنه فى خطبته البتراء التى خطبها الناس بالمسجد الجامع لأول دخوله البصرة . فقد أعلن عزمه على هدم المواخير ودور الفساد ، فقال : « ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدما وإحراقا » . ونهى عن دلج الليل نهياً باتاً ضربا على أيدى المتلصصة وقطاع الطرق من الأعراب ، وذلك فى قوله : « وإياى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه » . ونهى عن دعوى الجاهلية منعا لتعصب القبائل بعضها على بعض . « وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه » ، وأعلن تضامن الناس فى حفظ النظام : « وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم . . . أو تستقيم لى قناتكم » . إلا أن زيادا وإن كان قد شد الوطأة على أصحاب الريب والفساد فإنه سكن خواطر الصلحاء وجهد فى استمالة المنحرفين عنه : « فمن كان محسنا فليزدد إحسانا ، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته » ، ثم بين لهم حرصه على مصلحتهم : « واعلموا أنى مهما قصرت عنه فإنى لا أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ، ولا مجمراً لكم بعثاً . أيها الناس . . عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا »

وكان زياد عند قوله ، فما تعلق عليه أحد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده هذا فى حالات تعد على أصابع اليد الواحدة ، بقصد الإرهاب ، لا حباً فى سفك الدماء . فاستقامت أمور البصرة ؛ ولما تم له ذلك تكلف ضبط الأمر فى نواحيها فاستكفى كل قبيلة من فيها من الخوارج ، فكسر بذلك شرة تلك الفرقة العاتية ،

وعم الأمن أطراف البصرة ونواحيها حتى قال زياد : « لو فقد حبل بيني وبين خراسان لعرفت من أخذه » .

ولقد بلغ من ضبط زياد البصرة وأعمالها أنه لما توفى المغيرة بن شعبة فى سنة ٥٠ لم يتردد معاوية فى ضم إمارة الكوفة وأعمالها إلى زياد .

كان الخطر بالكوفة آتياً لا من قبل أهل الريب والفساد والخوارج وتعصب القبائل كما كانت الحال بالبصرة ، ولكن من قبل الشيعة الذين كانوا لا يعترفون بسلطان معاوية والذين وجدوا فى لعن على على منابرهم فرصة لإعلان معارضتهم وسخطهم ، فكانوا يقابلون ذلك بلعن معاوية وعماله والترحم على أبي تراب ، ولقد رأى معاوية فيهم خطرا جوهريا على حكمه فأمر المغيرة ابن شعبة بمراقبتهم .

وكان المغيرة بن شعبة فى أخريات حياته رجل رفق ولين وإيثار للعافية ، فكان يكتفى من الشيعة بالإخلاد إلى السكون وعدم مخالفة الجماعة ويدعهم بعد ذلك يقولون ماشاءوا . فلما أسندت ولاية الكوفة إلى زياد قدمها ، وشد الوطأة على رؤساء الشيعة : حجر بن عدى وأصحابه ، وطوى مابينه وبينهم من صداقة قديمة ، إيثارا منه على عادته لأداء واجبه نحو الحكومة التى يخدمها . ولما أحس منهم المقاومة لسلطانه والمجاهرة بلعن معاوية وعماله والترحم على على ، قبض على حجر بن عدى وبضعة عشر رجلا كانوا زعماءهم ، واستشهد ناساً من وجوه أهل الكوفة على أن حجراً وأصحابه قد خالفوا الجماعة وشقوا عصا الطاعة ، ثم بعث بهم وبالشهادة عليهم إلى معاوية . وهنا يتورط هذا السياسى المحنك فى الأمر ويضيق بهؤلاء النفر حلمه المشهور ، فيأمر بقتل ستة منهم ، فيهم حجر بن عدى ، قتلوا صبراً . بمرج عذراء بظاهر دمشق سنة ٥١ هـ

وهدأت أحوال الكوفة على أثر ذلك إلى حد أن استطاع زياد أن يكتب إلى معاوية يقول : إنى قد ضبطت العراق بشمالى ويمينى فارغة ، يعرض برغبته فى أن تضم إليه اليمامة ، لا الحجاز كما ورد فى بعض الروايات . فضم إليه معاوية اليمامة وما إليها .

ولم تطل حياة زياد بعد هذا الحادث ، فقد أصابه الفالج وتوفى فى رمضان عام ٥٣ هـ . ودفن بالثوية بظاهر الكوفة .

* * *

ذلك تصوير عام لحياة زياد السياسية . ومنه نرى أن زياداً كان سياسيا حازما يعرف مواضع الشدة ومواضع اللين ، ويلبس لكل حال لبوسها ، ويداوى كل داء بدوائه ، وقد أخذ ذلك عن الخليفة الثانى ، وكان يتأثره ويحب سماع الحديث عنه ويعمل بسنته ويقضى بقضائه .

وأيا ماكانت الحال فقد جعل رائده أداء الواجب والإخلاص للمصلحة العامة ، ولا أدل على ذلك من موقفه من معاوية عند ما أراد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فقد رأى زياد الأمر جد خطير ، وأن واجبه نحو الإسلام والمسلمين يحتم عليه ألا يعين معاوية على ما يريد ، فكتب إليه كتاباً مؤدباً ينصح له فيه بالتريث وعدم العجلة . وحسب زياد فخراً أن معاوية لم يخط الخطوة الأخيرة فى هذا الأمر إلا بعد موت زياد .

ذلك وجه الحق فى أمر ذلك السياسى الذي عاش فى أيام فتن واضطراب ونقلة من عصر النبوة والخلافة إلى عصر الملك والسياسة : أخذ بالحزم ، وأداء للواجب ، ونصح لولى الأمر . ومع ذلك فثم روايات تصور زياداً طائش السيف ، سفاكا للدماء بغير حق ، فنزعم أنه قتل الأبرياء بالبصرة ، وأنه قطع

أيدى ثمانين أو ثلاثين رجلا حصبوه وهو على المنبر بالكوفة ، وأنه دفن رجلا من أصحاب حجر حيا . إن هذه الروايات وأمثالها متهمة، لأنها صادرة عن رواة الشيعة المنحرفين عن بنى أمية ، ومؤرخى بنى العباس الذين قضوا على الدولة الأموية . وإلا فكيف يتصور أن ينال زياد بإجماع الأخبار رضا الأئمة المهديين عمر وعثمان وعلى ، وثقة عمالهم سعد وأبى موسى وابن عامر وابن عباس ، وإعجاب الفرس وولاءهم ، ثم ينقلب بمجرد وضعه يده فى يد معاوية سفاكا سفاحا ؟ ألا إن سبب الوضع والانتحال أو المبالغة على أقل تقدير واضح فى تلك الروايات من غير مراء .

* * *

وكما كان زياد سياسيا حازما ، فقد كان إداريا بارعا ، لا يكاد يلحق به فى ذلك الميدان من رجال الصدر الأول إلا قليل . والظاهر أنه لقف صناعة الإدارة أثناء عمله بفارس للإمام على ، وذلك بمعاشرته الدهاقين وسماعه أخبار الأكاسرة الأولين . عنى بعمارة فارس والعراق . فأما فارس فقد بلغه أن الساسانيين كانوا يضعون عن الناس كل عشر سنوات خراج سنة فاقتدى بهم فى ذلك ، فعمرت فارس عمارة عظيمة . وأما العراق فعرف من أول الأمر أهمية الرى بالنسبة له ، فحفر عدة أنهار ، منها نهر معقل ونهر الأبلة ونهر دبيس ، وأكثر من الأقطاع وإحياء الموات . قال المدائنى : « وكان يقطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين ؛ فإن عمرها وإلا أخذها منه ».

وقد عمر العراق لعهده عمارة عظيمة . روى البلاذرى أن جباية كور البصرة على عهد زياد بلغت ستين ألف ألف درهم ، كان يرسل منها إلى معاوية أربعة آلاف ألف فقط ، وينفق الباقى فى أعطيات الجند وعامة ضروب الإصلاح .

وبلغت جباية كور الكوفة على عهده أربعين ألف ألف درهم كان يرسل منها إلى معاوية ثلثي مايرسل إليه من جباية البصرة ، وينفق ما تبقى فى مختلف شئون الكوفة .

وعنى بأمر الأسواق ، فكان يراقب الأسعار مراقبة دقيقة متوخيا مصلحة الجمهور فى ذلك . قال المدائنى : « غلا الطعام على عهد زياد ، فدفع إلى التجار مالا فابتاعوا به طعاما ، وقال زيدوا ربعا ربعا ، فلما رخص الطعام ارتجع ماله » . وربما تنكر ونزل إلى السوق واختبر الموازين والمكاييل بنفسه ، وكان يوقع العقوبة الموجعة بمن يطفف كيلا أو يخسر ميزانا .

وعنى العناية كلها بالشرطة والجند ، فاتخذ حرسا مؤلفا من خمسمائة رجل لا يبرحون المسجد ، وجعل الشرطة ٤٠٠٠ رجل ، وبلغت مقاتلة البصرة فى زمنه ثمانين ألفاً ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفا . وجعل جند البصرة أخماسا ، وجند الكوفة أرباعا ، مازجا بين القبائل المتباعدة الأنساب ليؤلف بينها ، ويضعف من تعصب بعضها على بعض . وولى على كل خمس أو ربع رجلا من قبل الحكومة بدل سيد القبيلة كما كانت الحال من قبل ، ونقل إلى خراسان خمسين ألفا من عرب المصرين ، وجعلهم أرباعا على نظام جند الكوفة ، فكان ذلك بدء استعمار العرب ذلك الأقليم . وكانت أعطيات الجند وأرزاقهم وأرزاق عيالهم تصرف إليهم من دار الرزق فى مواعيد معينة من السنة ، وأكثر ماكان ذلك فى المحرم ورمضان .

روى البلاذرى أن زياداً سأل أحد جلسائه فقال : ألست تعلم أن الأسواق قائمة وأن الأعطيات والأرزاق تخرج إلى شهر معلوم ويبيع البائع إلى شهر معلوم ؟ قال : بلى ! قال : لله الحمد ! لا يزال الناس بخير ماكان أمرهم هكذا .

وكان لزياد شغف بالبناء مع ذوق فيه وحب للنظافة العامة . بنى بالبصرة
اد الامارة ؛ وهدم مسجدها ، وكان من القصب ؛ ثم وسعه وبناه بالآجر والجص
سقفه بالساج ؛ ونقل أساطينه من جبل الأهواز ؛ وأنشأ به المقصورة يدخل
ليها من دار الإمارة مباشرة دون أن يتخطى الناس . ويروى أنه حين بنى
لمسجد ودار الإمارة جعل يطوف فيهما وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه :
نرون خللا ؟ فيقولون ما نعلم بناء أحكم منه ! فقال : بلى ! هذه الأساطين التى
لى كل واحدة منها أربعة عقود ، لو كانت أغلظ من سائر الأساطين :
لوا ولم يؤت من تلك الأساطين قط تصديع ولا عيب . وقد قال شاعر من
حراء ذلك الوقت فى فخامة بناء ذلك المسجد :

بنى زياد لذكر الله مصنعة من الحجارة لم تعمل من الطين
لولا تعاور أيدى الإنس ترفعها إذاً لقلنا من أعمال الشياطين

وكذلك وسع مسجد الكوفة واتخذ به مقصورة ، وفرش صحنه وصحن
مسجد البصرة بالحصباء حتى لاتترب أيدى المصلين .

وقال المدائنى . كان زياد يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أصحت برفع
ا بين يدى فنائه من الطين ، فمن لم يفعل أمر بذلك الطين فألقى فى محلته . ويأخذ
ناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات ، ثم انه أشترى عبيدا ووكلهم بذلك .

وكان زياد يعنى بمظهره الرسمى للخاصة والعامة على السواء . كان يشتو
البصرة ويصيف بالكوفة ؛ وكان له مجلس يحضره أشراف المصر يدخلون عليه
به على السابقة والشرف والحسن ، ويسمرون عنده فيه جالسين على الكراسى ؛
هو أول من جلس بين يديه على الكراسى ، وكان لايطعم وحده ولكن مع
صحابة والشرط والمقاتلة ومن حضر ، وكان يغدى الناس ويعشيهم كل يوم إلا

يوم الجمعة فكان يعشيهم فقط ، وكان له قبة يشرف منها على عرض الجند كلما أراد ذلك ، وكان إذا برز من دار الامارة فى موكب فخم يسار بين يديه بالحراب والأعمدة ، وهو أول من سير بين يديه كذلك .

* * *

ولسيرة زياد الخاصة طرافة وروعة : كان زياد فى صباه حسن الهيئة ، حسن الثياب ذا ذؤابة . وقد وصفه من رآه فى أواخر حياته فقال : رأيته فيه حمرة ، وفى عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية ، مخروطها ، عليه قميص مرقوع . وقد أجمع الرواة على أن زيادا كان من أخطب الخطباء ، وأنه كان كاتباً بليغا ومحدثا لبق الحديث . قال الشعبى : « ما رأيت أحداً يتكلم إلا أحببت أن يسكت مخافة أن ينقطع ، إلا زياداً فإنه لايخرج من حسن إلا إلى أحسن » . وكان أبا باراً ببناته وأبنائه الكثيرين ، وصديقا وفيا لم يخل بصداقة المغيرة ولا صداقة بدر بن حارثة الغدانى الشاعر ، على قلة كلف زياد بالشعر ، ومع ماعرف به بدر من معاقرة الشراب . وإن يكن قد تنكر لحجر بن عدى فمن أجل الواجب وحده تنكر . وفوق كل شىء فقد كان زياد عفيفاً لم تؤخذ عليه هنة فى حياته الخاصة ، زاهداً فى الدنيا غير حريص عليها . روى الحافظ ابن عساكر فى تاريخه أن زياداً لم يكن من القراء ولا الفقهاء . ولكن كان يعد فى الزهاد . وقال الأصمعى : مكث زياد على العراق تسع سنين لم يضع لبنة ، ولم يغرس شجرة . يريد أنه لم يختص نفسه ببناء ولا زرع تعففا وزهدا . وكان يقول : أغبط الناس حالا رجل له دار لايجرى عليه كراؤها وزوجة صالحة قد رضيته ، فهما راضيان بعيشهما ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

ولما مات زياد رثاه غير واحد من الشعراء ، وقال فيه صديقه بدر ابن حارثة :

صلى الإله على قبر وطهره عند الثوية يسفى فوقه المور
أدت إليه قريش نعش سيدها فثم كل التقى والبر مقبور
أبا المغيرة والدنيا مغيرة وإن من غر بالدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة وكان عندك للنكراء تنكير
ولا تلين إذا عوسرت معتسرا وكل أمرك ما يوسرت تيسير
لم يعرف الناس مذ كفنت سيدهم ولم يجل ظلاماً عنهم نور
والناس بعدك قد خفت حلومهم كأنما نفخت فيها الأعاصير

قد يقال تلك زفرة صديق محزون لفراق صديقه ، ولكن العواطف النبيلة ، لا يهيجها عادة إلا ما هو نبيل حقاً .



محمد بن القاسم الثقفي (١)

لو أن من يدرس تاريخ الأمة العربية فتش فى ثنايا التاريخ عن شخصية تتمثل فيها سجايا تلك الأمة الكبيرة وعناصر قوتها لما وجد أجمع لتلك السجايا وهذه العناصر من شخصية الفتى الشهيد والفاتح العظيم ، والشاعر الحساس : محمد بن القاسم الثقفى ، الذى شرع فى غزو السند فى السابعة عشرة من عمره ، وأتمه ولما يتجاوز الثالثة والعشرين ، فأدخل بذلك فى الهند الثقافة الأسلامية التى يدين بها فى الوقت الحاضر زهاء ثمانين مليونا من أهلها . إنها شخصية تجمع إلى فتاء السن حنكة الكهولة ، وإلى خشونة الجندى رقة الشاعر ، وإلى الحرص على الدنيا زهد الفيلسوف وطمأنينة الحكيم .. وكل صفات اتصف بها العرب فى نهضتهم التاريخية الكبرى التى رجت العالم القديم فنبهته من سباته ورسمت للتاريخ مجرى جديدا !

وهو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ، فهو من ثقيف المشهورة فى الجاهلية والإسلام بقوة الدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة ، ثم هو ابن عم الحجاج ، أمير العراق ورجل الدولة الإسلامية فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى . يلتقى نسبهما فى الحكم بن أبى عقيل . ولد فى سنة ٧٢ هـ ، ونقع الحوادث مثار ، وريح الفتن نكباء ، والسيوف يتجاوب صليلها فى فارس والعراق والحجاز وإفريقية ، فجعل غلامنا يتنفس فى جو مكفهر عابس ، ولقف صناعة الحرب سماعا وعيانا ، ثم شاء ربك رحمة منه بالناس أن يكون إلى جانب

(١) الثقافة ، العدد ٨ ، السنة الأولى ٢١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

هذه الحياة القلقة المضطربة الخائفة حياة أخرى آمنة هادئة هى: حياة الأدب الذى يتمثل فى الشعر الغنائى الرقيق المأثور عن ابن أبى ربيعة ، وجميل ، وكثير ، والنميرى وغيرهم من شعراء ذلك الزمان فعشا نظر الفتى الثقفى الحائر إلى ذلك النور المشرق . فجاءه واهتدى به ، وهفت نفسه العطشى إلى ذلك المورد العذب فورده وارتوى منه ، وبذلك اعتدل مزاجه ، ورقت حواشى نفسه ، وأصبح وهو فى السابعة عشرة من عمره أشرف ثقفى فى زمانه كما يقول صاحب الأغانى ، وأقبل الحجاج ، وهو هو فى نقد الرجال وتمييز الكفايات ، يعقد به آمالا كبارا ، ويرشحه على حداثة سنه للأمر الجليل بعد الأمر الجليل .

* * *

لم يكد ينتصف العقد التاسع من للقرن الأول الهجرى حتى كانت الفتن التى صدعت وحدة الدولة الإسلامية من بعد معاوية قد ركدت ريحها ، فانتهت ثورة ابن الزبير بالحجاز ، وكسرت شوكة الخوارج بفارس ، وسكنت العاصفة الهوجاء التى أثارها ابن الأشعث بالعراق . هنالك عاود العرب حبهم القديم للفتح والتغلب ، وكان الحجاج واضع سياسة ذلك الاتجاه الجديد ومنفذها ، فغزا قتيبة بن مسلم ما وراء النهر وأوغل فيها ، وتوطد سلطان الدولة ببلاد عمان ، وغزا موسى بن نصير المغرب ، وقرع أبواب الأندلس نفسها . وقد أراد الحجاج أن تأخذ ثقيف بنصيبها من شرف هذه الفتوح الجسام ، فأغزى ابن عمه محمد بن القاسم السند التى هى مدخل ذلك العالم الزاخر بالناس والحافل بالخيرات ، والذى يسمى بلاد الهند .

الحق أن الحجاج لم يبتكر سياسة غزو الهند ، فقد عرف هذه البلاد عرب شرقى الجزيرة منذ الجاهلية ، وطالما ركبوا البحر إلى شواطئها مستبضعين وتجارا .

فلما قامت الدولة الإسلامية طمعوا فى غزوها وتملكها : يروى صاحب فتوح البلدان « إن عمر بن الخطاب ولى عثمان بن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم إلى البحرين ومضى إلى عمان » فأقطع جيشا إلى تانة (قريب من موقع بومباى الحاضرة) فلما رجع الجيش كتب الى عمر يعلمه . فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف ! حملت دودا على عود ، وإنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم » . وتتابعت غارات عرب البحرين من عبدالقيس وغيرها على شواطىء الهند وجزائرها ، وخاصة جزيرة سيلان التى كان يقال لها اذ ذاك « جزيرة الياقوت » لحسن وجوه نسائها ، فمن هؤلاء العرب من أفلح فى المقام بها ، ومنهم من عاد الى بلاده لهملء يديه السبى الرائع والمغنم الوافر . هذا من ناحية العرب . أما من ناحية الهند أنفسهم فقد « هاجرت منهم فى الجاهلية طوائف إلى رأس الخليج الفارسى وخضعت للدولة الفارسية القديمة ، فلما مصرت البصرة نزلوها وحالفوا من بها من العرب .

فلما كان زمن الحجاج أغزى عماله على مكران ثغر السند، فكلهم كان ينكب أو يقتل . وأرض السند عبارة عن حوض نهر السند العظيم، تنزلها قبائل عديدة قوية نذكر منها الزط والسيابجة والميد والبرهة . وكان بالسند بلدان كثيرة منتشرة فى أهضام الأودية ورءوس الجبال . منها الديبل ، وكانت ثغر السند قبل كراتشى الحاضرة وبرهمناباذ وراور والملتان . وكانت هذه البلدان قوية غنية بمعابدها البوذية القديمة وخاصة معبد الملتان . قال البلاذرى « وكان بد الملتان تهدى إليه الأموال ، وتنذر له النذور ، ويحج إليه السند ، ويطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبى ﷺ » . أما الناحية السياسية فقدكان يتوزع بلدان السند وقبائلهم عدة ملوك متقاطعى الكلمة مختلفى الأهواء .

وكان أقواهم سلطانا إبان غزو العرب للسند ملك يقال له داهر ، فهو الذى أشجى قواد الحجاج وأذاقهم مرارة الهزيمة المرة بعد المرة . والطريف أن مصرع هؤلاء القواد لم يحمل الحجاج على الجد فى قتال داهر بمقدار ما حمله عليه استغاثة امرأة عربية اعتدى عليها، وعلى نسوة عربيات كن معها، بعض قراصين البحر من أهل السند التابعين لداهر .

وذلك أن ملك جزيرة الياقوت فيما يروى البلاذرى ، أراد التقرب من الحجاج، فأهدى اليه نسوة ولدن فى بلاده مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجارا. فعرض للسفينة التى كن فيها قراصين من ميد الديبل فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهن من بنى يربوع : ياحجاج! بلغ الحجاج ذلك ، فقال لبيك! وأرسل من فوره إلى داهر يسأله تخلية النسوة . فأجاب بأنه إنما أخذهن لصوص لاقدرة له عليهم . فأغزى الحجاج اثنين من عماله ثغر السند، فكلاهما قتل. فاهتاج الحجاج وتجرد لقتال داهر . وكان قد أعد محمد بن القاسم لغزو الرى فلما حدث ما حدث على حدود السند رأى فى هذا الشاب من يرأب الصدع ويدرك الثأر . فرده عن غزو الرى وعقد له على مكران وثغر السند، وأمره أن يقيم بشيراز حتى توافيه القوة التى أخذ يعدها لقتال داهر .

كانت هذه القوة مؤلفة من جيش وأسطول. أما الجيش فكانت عدته زهاء عشرين ألف مقاتل ، منهم ستة آلاف فارس من جند الشام الذين كانوا عدة الدولة الأموية ومعولها والذين وطأوا للأمويين أكتاف ملكهم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وأما الأسطول فكان يحمل المشاة والمؤن وعدد الحرب الثقيلة. ومن هذه خمس مجانيق ضخام ، يقال لأكبرها (العروس) . ويروى البلاذرى أنه كان يمد فيها خمسمائه رجل . وبالغ الحجاج على عادته فى إعداد الجيش حتى

أنه « .... جهزه بكل ما احتاج إليه من الخيوط والمسال وعمد إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الخمر الحاذق ثم جفف فى الظل ، فقال إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن. ثم اطبخوا به واصطبغوا » ، ثم تقدم إلى محمد ألا يقطع عنه أخباره بحيث يختلف البريد بينهما مرة كل ثلاثة أيام .

* * *

خرج محمد بن القاسم بجيشه من شيراز ، سنة ٩٠ ه ، فسار مشرقا متبعا ساحل البحر يطوى الحزون والسهول ، ويجوب المهامه والقفار، ويحدوه مايحدو الشباب الحى من حب للمجد وتعلق بأسباب المعالى ، فتغلب على صحارى كرمان ومكران ، وبلغ الديبل سالما . ولم يكد يحط رحاله حتى كان الأسطول قد وافاه بها. فشرع من فوره فى مهاجمة المدينة . قال صاحب فتوح البلدان: «فقدم الديبل يوم جمعة، ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة ، فخندق حين نزل الديبل، وركزت الرماح على الخندق، ونشرت الأعلام، وأنزل الناس على راياتهم، ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل . وكان بالديبل « بد » عظيم عليه دقل طويل، وعلى الدقل (سهم السفينة) راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور .... وكانت كتب الحجاج ترد عليه بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به فى كل ثلاثة أيام . فورد على محمد من الحجاج كتاب : أن انصب العروس وأقصر منها قامة ، ولتكن مما يلى المشرق ، ثم ادع صاحبها ، فمره أن يقصد برميته الدقل الذى وصفت لى ، فرمى الدقل فكسر ، فاشتد طرة (جزع) الكفر من ذلك . ثم إن محمداً ناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم، وأمر بالسلاليم فوضعت وصعد عليها الرجال... ففتحت عنوة ... وهرب عامل داهر عنها ... واختط محمد للمسلمين بها ، وبنى

مسجدا، وأنزلها أربعة آلاف »، ثم سار محمد مصعدا مع النهر يريد داهرا، وعظم جيشه فاستولى على مدينة الراور صلحا . وانضم إليه على أثر ذلك أربعة آلاف من الزط ، وصار كثير من قبائل السند عونا له فى حربه مع داهر. ثم عبر نهر مهران والتقى بداهر وجيشه . وكان على فيل عظيم ومن حوله الجند على فيلة تنذر محمدا وجيشه بفتك ذريع . ولكن محمدا اتقى شر الفيلة بقذائف النفط الملتهب يرميها بها ، فهاجت واحترقت هوادجها بمن فيها من الجند . وانتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عن قتل داهر وتمزق جيشه وتراجع فلوله إلى مدينة برهمنا باذ . واقتفى محمد أثر تلك الفلول فاستولى على مدينة راور فبرهمناباذ نفسها ، ومن ثم زحف إلى مدينة الراور فحاصرها أشهرا ثم دانت له على أن يحقن دماء أهلها وألا يعرض لبدهم ، وأن يؤدوا إليه الخراج . وقد وفى لهم بشرطهم وبنى بالمدينة مسجدا . ثم قطع نهر بياس إلى الملتان ، أعظم بلدان السند العليا ، فامتنعت عليه أول الأمر ، ثم استولى عليها بممالأة رجل من أهلها له . ووضع يده على أموال جسيمة كانت بمعبدها البوذى .

كانت الملتان أقصى ماوصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال، قال البلاذرى: « ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف ألف درهم ، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف، فقال : شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر » .

أخذت الملتان سنة ٩٥ هـ . وعلى أثر ذلك أتت محمدا وفاة الحجاج فقفل راجعا نحو الجنوب مستوليا فى طريقه على مدن لملوك آخرين غير داهر . وكان آخر ما فتح مدينة يقال لها (الكيرج) استولى عليها عنوة سنة ٩٦هـ . ثم أتاه نعى الخليفة الوليد بن عبد الملك وولاية أخيه سليمان ، فلم يبرح تلك المدينة .

وقلب له الدهر من ذلك الوقت ظهر المجن ، وأخذ نجمه فى الأفول .

* * *

لاشك أن الحجاج كان موفقا عندما عهد إلى ذلك الشاب قيادة تلك الحملة الخطيرة . فإن محمدا بحداثة سنه وصدق فروسيته قد ملك زمام أصحابه . فلا نسمع أن أحدا منهم حدثته نفسه بخلاف عليه أو عصيان له . ثم إنه بهذه الخلال نفسها وبرجاحة عقله وسعة حلمه اجتذب قلوب السند أنفسهم ، فقد قارنوا بينه وبين ملوكهم المترفين المتجبرين المتخاذلين فلم يتمالك كثير من قبائلهم أن أعطاه الطاعة وأخذ جانبه فى الحرب كما سبق القول. ويروى إنه عندما شرط عليه أهل مدينة الراور ألا يقرب بدهم وفى لهم بذلك وقال: « ما البد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس . » . وكانت حكومته إياهم عادلة رفيقة إذا قيست بحكومة ملوكهم وأمرائهم ، فقد تقدم إلى عماله بهذه النصيحة : « أنصفوا الناس من أنفسكم ، وإذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية ، وراعوا فى فرض الخراج مقدرة الناس على أدائه ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشق بكم البلاد. ثم إنه كان مدركا كل الإدراك أن عليه واجبين عظيمين : عليه أن ينشر فى البلدان التى فتحها الثقافة الإسلامية ، وأن يصل بين الشرق والغرب الإسلاميين. من أجل ذلك كان إذا فتح مدينة أنزلها بعض أصحابه ، وبنى بها مسجدا ، ومن أجل ذلك نقل طوائف من الزط والسيابجة إلى العراق . فأنزل الحجاج بعضهم كورة كسكر بفارس ، ووجه بقيتهم إلى الخليفة ، فأنزلهم أنطاكية وسواحل الشام لينتفع بخبرتهم البحرية فى قتال الروم ، كذلك أرسل إلى الحجاج فيلة سميت ببعضها مشرعة الفيل التى كانت بواسط .

كما بعث إليه أول جزء بآلاف من الجواميس السندية ، فأطلق الحجاج

بعضها فى آجام كسكر وكور دجلة ، وبعث كثيرا منها إلى الخليفة فأطلقها فى الآجام التى بين أنطاكية والمصيصة ، واتقى بها سباع تلك الآجام وكانت قد كثرت وأخافت السابلة . وقد نمت هذه الماشية بالعراق على مر الزمن حتى أصبحت من أسباب ثروته الاقتصادية فى الوقت الحاضر .

تلك غزوة محمد بن القاسم للسند . إنها لا شك تذكرنا بغزو الاسكندر المقدونى لتلك البلاد نفسها فى أخريات القرن الرابع قبل الميلاد . فالغزوتان تتشابهان من عدة وجوه : تتشابهان من حيث أن كلتيهما برية بحرية إلى حد بعيد ، ومن حيث حداثة كلا الفاتحين وكفايته ، ومن حيث أن كليهما نهج فى نشر ثقافته بالسند نفس المنهج الذى نهجه الآخر ، ومن حيث أن كليهما كان يهدى إلى أستاذه طرفا من طرف فتوحه ويراسله مستطلعا رأيه ، فالفاتح المقدونى كان يهدى إلى أرسطو ويراسله ، والفاتح العربى كان يهدى إلى الحجاج ويراسله مصدرا فى بعض المواقف عن رأيه . ولو أن أهل السند الذين غزاهم ابن القاسم والذين قد يكون منهم من يدين بشرعة التناسخ ذكروا تاريخ بلادهم القديم فربما رأوا فى الفاتح العربى الحديث انبعاث روح الفاتح المقدونى القديم .

* * *

وبعد فماذا كان مصير ذلك الفاتح العظيم؟ لقد جوزى جزاء سنمار، وصار إلى شر مصير ، فقد نكبه الخليفة سليمان بن عبد الملك نكبة كان فيها تلف مهجته وبوار نفسه . والمصادر القديمة مختلفة فى تعليل تلك النكبة : فالمصادر الفارسية ، وهى حديثة نسبيا وغير موثوق بها ، تزعم أن بنات داهر أفضين إلى الخليفة بأن ابن القاسم عبث بهن ، فاضطرم الخليفة غيظا ، وأمر بمحمد فوضع فى أديم بقرة ، ثم خيط عليه الأديم وحمل إلى دمشق ، وفاضت روحه بالطريق. فلما بلغ بنات

داهر مصرع الفتى استشعرن الندم وقلن إنهن تجنين على ابن القاسم ، انتقاما ممن قتل أباهن وثل عرشه ، فاشتد غضب الخليفة عند ذلك ، وأمر بهن فقتلن شر قتلة : أما المصادر العربية ، وهى أقدم من المصادر الفارسية وأوثق ، فلا تذكر شيئا من أمر النسوة ، ويؤخذ منها أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان مضطغنا على الحجاج لأنه كان قد زين للخليفة الوليد بن عبد الملك خلع سليمان من ولاية العهد : أما وقد فارق الحجاج هذه الدنيا فقد رأى سليمان أن يشفى غيظه من أقربائه ، متأثرا فى ذلك بنظام الثأر عند العرب . وقد أذكى نار الحقد والموجدة فى صدره رجلان كلاهما قد وتره الحجاج وكلاهما كان متأثرا بالعصبية القبلية بين قيس واليمن : أحدهما يزيد بن المهلب ، وكان أثيرا مكينا لدى الخليفة ، والآخر صالح بن عبد الرحمن وقد ولاه سليمان خراج العراق .

عزل محمد عن السند ، وولى مكانه يزيد بن أبى كبشة السكسكى ، فأخذ محمدا وقيده وسيره إلى العراق مع رجل من بنى المهلب على حال حركت قلوب أهل السند ، فبكوا عليه وصوره أهل الكيرج بمدينتهم التى كان منها شخوصه . وقد تلقى محمد المحنة صابرا محتسبا ، ولم يكن فى محنته أقل شجاعة وصبرا وأنفة منه وقت الحرب وحين البأس . والغريب أنه على إخلاص أصحابه له وعطف السند عليه لم تحدثه نفسه بالخلاف والانتقاض . والظاهر أن أيقن أنه قد أدى واجبه وأن الحياة قد أصبحت بعد ذلك لغوا وفضولا لا طائل فيه . وقد جعل يسرى عن نفسه بمقطوعات من الشعر ضمنها آلامه وخواطر نفسه . فمن ذلك قوله مشيرا إلى أنه لو أراد الثورة لشق على أعدائه تهضمه :

ولو كنت أجمعت القرار لوطئت ... أناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عك على أمير

ولا كنت للعبد المزونى تابعا فيالك دهر بالكرام عثور !

ولما صار إلى واسط حبسه صالح بن عبد الرحمن فقال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولا

فلرب قينة فارس قد رعتها ولرب قرن قد تركت قتيلا

وعذبه صالح فى رجال من أقرباء الحجاج حتى قتلهم ، فطفق الشعراء يرثون محمدا ويذكرون فضائله ، فمن ذلك قول بعضهم :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سؤددا من مولد !

وقال آخر :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ولداته عن ذاك فى أشغال

تلك خاتمة فتى فتيان العرب وسيد فرسانهم غير مدافع . فمن مبلغ مسلمى الأرض عامة والهند خاصة أن الدوحة الإسلامية العالية التى أظلت بلاد الهند طوال العصور الوسطى إنما كانت غرس ذلك الفتى العربى النبيل ؟ فليذكر ذلك الذاكرون فقد تبل الذكرى رفات ذلك الشهيد فى قبره ، بعد أن عدم فى حياته من يحمد بلاءه أو يرحم شبابه ؟

عمر بن عبد العزيز[1]

٦٢ - ١٠١ هـ

ود الحكماء من قديم لو أن ملوك الأرض كانوا فلاسفة، أو لو أن الفلاسفة كانوا ملوكا، إذن لاقترنت السياسة بالأخلاق على أساس ثابت مطرد. وتعاونتا جميعا على النهوض بالمجتمع الإنسانى، ولاستحال عالمنا المضطرب جنة راضية ونعيما مقيما.

وكثيرا ما كتب الحكماء فى نظم عامة ابتدعتها أخيلتهم وزعموها توفر على الناس فى هذه الدنيا اللذة والسعادة، وتنفى عنهم الألم والشقاوة: فعل ذلك أفلاطون فى «الجمهورية»، والفارابى فى «أهل المدينة الفاضلة»، وتوماس مور فى «أوطوبيا»، كما فعله كثير غير هؤلاء ممن ترسم آثار أفلاطون ونسج على منواله.

هذا الحلم الجميل تحقق أو كاد فى التاريخ مرة واحدة على ما نعلم، وذلك على عهد الخليفة العربى المسلم: عمر بن عبد العزيز، فهو رجل ألقت اليه المقادير بزمام أعظم دولة فى الأرض فى زمنه، ومع ذلك استطاع أن يقدع شهوته حتى كاد يميتها، وأن يروض نفسه حتى ردها إلى الرضا بالقليل الأقل. ثم تجرد لإصلاح رعيته من طريق العدل والرفق والرحمة، فأذاقهم لذة الأمن واليسر والرضا. وفوق هذا وذاك قد ترامت همته إلى ما وراء قومه وبلاده، فطمع أن يجمع شعوب الأرض طرا فى نظام واحد يقوم على مبادىء الأخوة والعدالة والمساواة.

---

(١) الثقافة، العدد ١٤، السنة الأولى، ١٥ اغسطس سنة ١٩٣٣.

وقد وفق ابن عبد العزيز فى هذا المطمع البعيد توفيقا حد من مقداره، يا للأسف، أن عجلت إليه المنية وهو لا يزال فى ميعه العمر وعنفوان الحياة .

* * *

قد اجتمع فى تكوين هذه الشخصية العجيبة عاملا الوراثة والبيئة معا . فأبوه عبد العزيز قد ولى مصر عشرين سنة دلت على ثقافته العالية واضطلاعه بأعباء الحكم ، وبصره بتألف القلوب . وجده مروان بن الحكم هو ذلك السياسى الجرىء العارف بنفسية الأفراد والجماعات ، والخبير بانتهاز الفرص عند إمكانها .

وأما نسبه لأمه ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكفى بانتسابه إلى تلك الشخصية العظيمة تعريفا بسبب من أسباب ورعه وجراءته فى الحق على نفسه وغيره .

وليس أثر البيئة فى تكوين ابن عبد العزيز بأقل من أثر الوراثة . فقد ولد بالمدينة عام ٦٢ هـ وشب بها على أصح الروايات . فلما ولى أبوه مصر عام ٦٥ هـ حمل إليه ، ولبث بمصر زمنا ما ، نعم فيه بصحبة أبيه ومشاهدة آثار الحضارة المصرية والبيزنطية . وهنا رمحته دابة فشج شجته التى عرف من أجلها بأشج بنى أمية ، فلما بلغ سن التأديب بعث به أبوه إلى المدينة ليتأدب بها وينشأ نشأة إسلامية مدنية ، وكانت المدينة إذ ذاك بيئة مركبة غير بسيطة ، يعرف فيها من يحللها الروح الدينى الصحيح ماثلا فى نفر من بقايا الصحابة وكبار التابعين ، أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، كما يعرف فيها الجانب الأرفه من الحياة ، ممثلا فى مثل عبد الله بن جعفر أول نصير لصناعة الغناء العربى ، وطائفة من المغنين والقيان يتقدمها معبد ومالك بن أبى السمح المغنيان المدنيان الشهيران . ثم إن

المدينة كانت إذ ذاك من الناحية السياسية موطنا للمعارضة التى تستند إلى الكتاب والسنة فى مقاومة الحكومة الأموية فى هـذه البيئة تخرج ابن عبد العزيز ، فروى الحديث عن حملته ورواته ، ولقف صناعة الغناء وأعانه على المساهمة فيها صوت ندى عذب . كما أشرب روح الحكومة الإسلامية القديمة التى كانت تختلف عن الحكومة الأموية اختلافا كبيرا . إلى ذلك كله كان ابن عبد العزيز فتى مليح الخلقة ناعما مترفا كعادة فتيان بنى أمية . يروى أنه أبطأ يوما عن الصلاة فسأله مؤدبه صالح بن كيسان عن سبب إبطائه فقال : « كانت مرجلتى تسكن شعرى » فكتب مؤدبه بذلك إلى أبيه ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق شعره .

* * *

فى عام ٨٥ هـ توفى عبد العزيز بن مروان بمصر ، وكان ابنه عمر قد تم تأدبه بالمدينة ، فاجتذبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى الشام وزوجه من ابنته فاطمة ، ثم ولاه « خناصرة » وهى بليدة من أعمال حلب واغلة فى البادية . فلبث واليا عليها سنتين كانتا من أنعم سنى حياته وحياة زوجه . وقد أعجبته خناصرة حتى أنه عندما استخلف اتخذها منزلا على عادة ملوك بنى أمية فى إيثارهم سكنى البادية على الحاضرة . وفى عام ٨٧هـ اختاره الخليفة الوليد بن عبد الملك لولاية المدينة بدلا من هشام بن إسماعيل المخزومى الذى أساء السيرة فى أهلها ، ولا شك أن الوليد إنما اختار عمر للمدينة لما يعلم من المشاكلة القوية بينه وبين هذه الولاية ، ثم إنه بعد قليل ضم إليه مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميرا على الحجاز كله .

كانت حكومة عمر بن عبد العزيز بالحجاز (٨٧ - ٩٣هـ) حكومة شورية

أبوية يمازجها من ناحيته الشخصية مقـــدار غير قليل من الحرص على الترف والتنعم . فلأول قدومه المدينة اصطفى عشرة من العلماء اتخذهم نصحاء ومستشارين يصدر فى الأمور عن رأيهم ، ثم عكف على إصلاح شئون الحجاز : فهدم المسجد النبوى وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ، وأصلح الطرق ، وأكثر من الآبار فتيسر بذلك الماء فى ذلك القطر الظمىء ، كما أنه عمل بالمدينة فوراة يستقى منها أهلها . وقد أعجب الخليفة بتلك المنشآت عند ما زار المـدينة سنة ٩١ هـ وأمر للفوارة بقوام يقومون عليها ، وأن يسق أهل المسجـد منها ، ففعل عمر ذلك ، ومن مظاهر بساطة عمر فى إمارته بالحجاز أنه جلس يرتل القرآن بصوته العذب فتأذى بذلك سعيد بن المسيب على غير علم منه بصاحب الصوت ، فلم ير عمر بأسا بأن ينتحى ناحية أخرى من المسجد . وبلغه أن قاضيه على المدينة استخفه الطرب عند ما سمع جارية تغنى حتى أخرجـه من وقاره ، فعزله عمر ، ولـكن القاضى المعزول تحدى الأمير لسماع الجارية ، فسمعها عمر وكاد هو أيضا يستخف . فعذر القاضى ورده إلى عمله . وعند ما قدم الفرزدق الشاعر المدينة وكانت السنة ممحلة وخاف أهل المدينة لسانه رفعـــوا أمرهم الى عمر فأخرجه من المدينة ونهاه أن يعرض لأحد من أهلها بمـدح أو بهجو . أما من حيث حياة عمر الشخصية فى تلك الفترة فكان مترفا مسرفا فى الـترف ، يرخى شعره ويسبل إزاره ، ويلبس الثوب تبلغ قيمته مئات الدنانير ، ويكثر مـن الطيب حتى لتقصف ريحه إذا مشى مشيته « العمرية » ، وهى مشية كان يتبختر فيها ويختال ، ولملاحتها كانت الجوارى تأخذها عنه .

حادث واحد نغص على ابن عبد العزيز إمارته على الحجاز : ذلك مصرع خبيب بن عبد الله بن الزبير ، فقد نقم الخليفة الوليد من خبيب أشياء بلغته عنه ،

وكتب إلى عمر أن يضربه ، فضربه عمر ضربا كان فيه هلاكه . وقد جزع عمر لذلك جزعا شديدا ، ويقولون إنه لبس المسوح سبعين يوما حدادا على خبيب ، ثم أقلع عن ذلك . فلما استخلف دفع دية خبيب الى أوليائه ؛ ومع ذلك كان يرى أن الله لا بد مؤاخذه بذلك الذنب ، فكان إذا بشره أحدهم قال : « وكيف بخبيب ! »

وغدا الحجاز ينعم بأمن وعافية مما ابتليت به الأمصار الأخرى ، ولا سيما العراق ، من الفتن والقلاقل . ولذلك أخذت فلول ثوار العراق والخوارج تفد على الحجاز فرارا من وجه الحجاج وسيفه المسلول ، فكان ابن عبد العزيز يجيرهم ويحميهم . ثم لم يكتف بذلك : فكتب إلى الخليفة يندد بعسف الحجاج وبطشه . فاضطغنها الحجاج عليه ، وكتب إلى الخليفة يشكو من أن أمير المدينة يجير « مراق » العراق وأن ذلك موهن له . وقد نظر الخليفة فى الأمر مليا ، ثم رأى أن يشد أزر الحجاج فى هذه الخصومة ، فالعراق أخطر من الحجاز . والحجاج أولى بالمصانعة من عمر بن عبد العزيز . فصرف عمر عن الحجاز بأميرين : أحدهما للمدينة والآخر لمكة . فكان أول ما صنعا أن أخرجا من الحجاز إلى الحجاج كل عراقى فى الجوامع والأغلال ، وتوعدا كل حجازى أنزل عراقيا أو آجره دارا .

* * *

خرج ابن عبد العزيز من الحجاز إلى الشام مغاضبا للخليفة الوليد ، وقد ساءه أن عزل عن إمارة المدينة حتى قال لمولاه مزاحم وهو ببعض الطريق : « أخشى أن أكون ممن تنفيه المدينة » ، إشارة إلى الحديث الوارد فى أن المدينة

تنفى خبيثها . فلما حصل بالشام شغل نفسه بالغزو فرارا من وجه الوليد والتماس الأجر والسلوة . فلما توفى الوليد عام ٩٦هـ وولى سليمان بن عبد الملك لزمه عمر وكان أثيرا عنده يستشيره سليمان وينزل على رأيه فى كثير من الأمور . على أن عمر نفعه أن عزل عن الإمارة على النحو المتقدم : فقد دفعه ذلك فى السنوات الست التى قضاها بالشام قبل أن يستخلف (٩٣ - ٩٩هـ) إلى النظر فى حال الدولة العربية فى أواخر القرن الأول الهجرى .

نظر فإذا الدولة الإسلامية قد أبعدت فى التخلى عن الصفة الدينية التى كانت لها قديما ، وأسرفت فى الاصطباغ بالصبغة الزمنية المتطرفة ، أليست حكومة عبد الملك والوليد والحجاج ويزيد بن المهلب حكومة تجبر وطغيان؟ أليست حكومة سليمان حكومة الشهوة العطشى والجسد المنهوم ؟ لقد أصبح السلطان يعتمد فى شد أركانه وتقوية دعائمه على القوة الغشوم والسيف المرهف . أما العدل وأما الرفق وأما الرحمة : فلم يعد لكل ذلك عنده محل ولا حساب . ونظر فإذا أحوال الدولة قد عراها الخلل والاضطراب من كل نواحيها . فنحو ثلث أموال الدولة قد استحال ملكا خاصا لبنى أمية ، وأكثر الضرائب يجبى من غير وجوهه ، ويصرف فى غير مصارفه الشرعية . فكثير من الأراضى الخراجية التى لا يصح تملكها قد استحالت أرضا عشرية يتملكها أفراد من المسلمين يؤدون عنها الزكاة التى مقدارها أقل من مقدار الخراج ، وكثير من الموالى أو مسلمى الأعاجم لا يزالون مع إسلامهم يؤخذون بالجزية لغير ما سبب سوى أن العمال لحظوا فى إسلامهم معنى الفرار من الجزية فأبوا أن يعفوهم منها . هذا فوق أن هؤلاء الموالى لم يكونوا والعرب سواء فى الحقوق ، فكانوا يغزون إلى جانب العرب دون أن يكون لهم عطاء . ثم إن عدم إنفاق الزكاة فى مصارفها الشرعية قد أدى إلى كثرة الفقراء

والمساكين والمرضى والزمنى ممن جعل لهم الشرع حقا فى الصدقات العامة . ثم نظر فرأى بأس الأمة الإسلامية بينها شديدا ، قد توزعتها الفرق المتباغضة والأحزاب المتناحرة ، فمن شيعة يطوون الصدور على الإحن لما نالهم به بنو أمية من أذى ومساءة ، ومن خوارج يتحينون الفرص لهدم النظام القائم وإحلال نظامهم محله ، ومن موال قد ساءهم ألا يسوى بينهم وبين العرب فى الحقوق العامة ، ومن مضرية ويمنية وربعية ، كل يحاول أن يكون له النفوذ السياسى من طريق الولاية على الأقاليم والتأثير فى السلطان نفسه . هذا فى الداخل أما فى الخارج فرأى عمر أن الجهاد الذى شرع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لمنع العدوان على النفس والعقيدة ، والذى كان على عهد الشيخين ضرورة اقتصادية ملحة ، قد استحال فى زمن الأمويين أداة للتوسع فى السلطان ، وجر المغنم الوافر ، والسبي الرائع ، حتى قال الشاعر :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى   ومات الندى والجود بعد المهلب

نظر عمر فى كل ذلك فرده إلى سبب جوهرى واحد : هو انحراف الجماعة الإسلامية عن الأساس الذى قامت عليه : أساس الدين ، والدين عند عمر هو الدين المتصل بالحياة العامة يمدها ويغذيها بقوته المعنوية ، والممسك لشئون الجماعة أن تضطرب وتصبح فوضى ، هو الدين الذى أثره فى الحاكم شعور قوى بالمسئولية وعمل صادق على إسعاد العباد والترفيه عنهم ، والذى أثره فى المحكومين اقتضاء للعدل إذا حرموه ، وأنفة من الضيم والذل إذا ما أريدوا عليهما . الدين عند عمر بن عبد العزيز : هو الحق والإنسانية عبر عنهما بلفظ واحد .

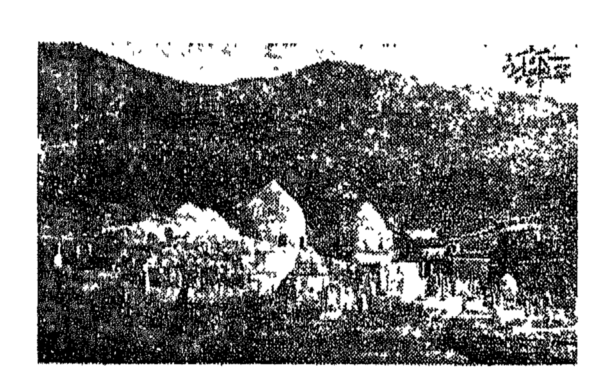
وبينا عمر يرسل الفكر فى أنحاء الحياة الإسلامية العامة متعرفا عللها إذا به فى الوقت نفسه قد أخذ يخضع لتطور نفسانى عنيف . لقد أخذ حرصه على الترف

والتنعم يضعف رويداً رويداً ، وميله إلى الزهد والتنسك يقوى شيئا فشيئا ، وأصبحت نظرته إلى الحياة نظرة إلى متاع قليل زائل ، لا يعدل شيئا بجانب طمأنينة النفس وراحة الضمير، كما أصبح دائم التفكير فى الموت وفيما بعد الموت: فالموت آت لا ريب فيه ؛ والموت برزخ مؤد إما إلى جنة وإما إلى نار ، والمنتهى على كل حال رهين بما يكون عليه المرء فى العدوة الدنيا من ذلك البرزخ الرهيب .

ما سر هذا التطور العجيب الذى جعل من ابن عبد العزيز الناعم المترف ناسكا زاهداً متصوفا ؟ نتبين ذلك السر فى نفسية ابن عبد العزيز من جهة ، وفى مقدار تأثره بالحياة الأسلامية العامة لذلك العهد من جهة أخرى . لقد كان فى عمر نزوع طبعى إلى الزهد ، فهو كما رأينا من سلالة عمر بن الخطاب ، وكان فى طفولته يحاول التشبه بخاله الزاهد عبد الله بن عمر ، ولما تورط فى أمر خبيب لبس المسوح سبعين يوما يأسا من غضارة العيش ، ولذاذة الحياة ، فلما نصح بالإقلاع عن ذلك أقلع . ثم إن الحياة الإسلامية قد ألمت بها فى أواخر القرن الأول نزعة زهد جاءت كرد فعل البادية التى طغت عليها إذ ذاك : هذه النزعة التى تحولت بعد إلى الحركة الصوفية المشهورة نتبينها فى طبقة العباد والنساك التى يتكلم عنها صاحب العقد الفريد طويلا. وقد خضع عمر لتأثير هذه الطبقة وهو فى المدينة ، فكان من أشد الناس تأثيرا فيه عبيد الله بن عبدالله بن عتبة . فلما صار بالشام خضع لتأثير رجلين يعتبران بحق من أقطاب عصرهما علما وزهداً وورعا : هذان هما الحسن البصرى ورجاء بن حيوة الكندى . أما الحسن فقد اتصل به عمر من طريق المراسلة ، ولعله قد أخذ عنه كراهية القول بالقدر

الذى ينسب إلى الحسن خطأ . وأما رجاء فقد كان مستشار سليمان بن عبدالملك وكان لذلك أقرب إلى عمر وأقوى به اتصالا .

وبعد، فلئن كان النظر فى الأحوال العامة قد انتج لعمر ضرورة الرجوع إلى الدين فى إصلاح غيره ، فقد أنتج له مزاجه الخاص وتأثره بالزهاد من أهل عصره ضرورة الزهد من أجل إصلاح النفس وتهذيبها . الدين والزهد ، هاتان هما الخلتان اللتان كانتا تعمران فؤاد عمر وقلبه عندما أخذ صلحاء الشام يرشحونه للخلافة .



عمر بن عبد العزيز
(٢)

لم يكن عمر بن عبد العزيز صاحب حق في الخلافة بمقتضى نظام الخلافة الأموية . ولكن ذيوع فضله وسموه الروحي على سائر بني أمية لفت إليه نظر أولي الحل والعقد من صلحاء الشام ، أمثال رجاء بن حيوة الكندي وابن شهاب الزهري ومكحول الشامي ، فلما مرض سليمان بن عبد الملك بدابق مرضه الذي مات فيه ولم يكن له ولد بالغ يعهد إليه ، لم يزل به رجاء بن حيوة وأصحابه حتى كتب عهده لعمر بن عبد العزيز، ثم من بعده ليزيد بن عبد الملك. ثم أمر فأخذت البيعة من بني أمية لمن سمي في عهده دون أن يعينه لهم ، فلما قبض سليمان وأعلن الأمر إلى بني أمية جددوا البيعة لعمر على كره منهم (٢٠ صفر سنة ٩٩هـ) .

شرع عمر في تنفيذ برنامجه الإصلاحي منذ تم له الأمر. ولقد كان له من زهده ومناصرة العلماء له ومواتاة أهل بيته : زوجه فاطمة ، وابنه عبد الملك ، وأخيه سهل ، ومولاه مزاحم ، أقوى عون على ما أراد . بدأ عمر بمنصب الخلافة ممثلا فيه فجرده من كل مظاهر الأبهة ورده إلى بساطته القديمة ، ولا أدل على ذلك من كلام ابن عبد الحكم قال : « ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز قربت إليه المراكب ، فقال ماهذه ؟ فقالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول مايلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته ؛ وقال : يا مزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين ، ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب

للخلفاء أول مايلون ، فقال ماهذه ، فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحـد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي ، قال يامزاحم ! ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط ويفرش للخلفاء أول ما يلون فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى إلى الحصير. ثم قال يامزاحم ! ضم هذه لأموال المسلمين .

« وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويلبسون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر . وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب أو مس من الطيب كان لولده ، وما لم يمس من الثياب وما لم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان هذا لك وهذا لنا . قال ، وماهذا ، وما هذا ؟ ... ماهذا لى ولا لسليمان ولا لكم، ولكن يامزاحم! ضم هذا إلى بيت مال المسلمين ، ففعل . فتآمر الوزراء فيما بينهم فقالوا: أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهى الجوارى نعرضهن ، فعسى أن يكون ماتريدون فيهن ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده . فأتى بالجوارى فعرضن عليه كأمثال الدمى . فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت؟ ولمن جئت؟ ومن بعثك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت، فيأمر بردهن إلى أهلهن ويحملهن إلى بلادهن حتى فرغ منهن . فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق » .

ثم عمد إلى النظام الإقليمى فأصلحه بأن عزل العمال المتشبعين بروح الحجاج ، عزل يزيد بن المهلب وحبسه فى مال كان للدولة فى ذمته، ونفى نفرا من بنى عقيل أسرة الحجاج ، وولى عمالا جددا لم يحفل فى تخيرهم بعصبياتهم ولا

بقدرتهم على جمع الأموال، كما كانت الحال من قبل، ولكن بحسن سيرتهم وطهارة ذمتهم ، فكان من عماله: عدى بن أرطاة الفزارى والى البصرة ، وعبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي والى الكوفة ، وعبد الرحمن بن نعيم القشيرى أمير خراسان، وأبو بكر بن حزم أمير المدينة ، والسمح بن مالك الخولانى أمير الأندلس .
وقد شد أزر الولاة بقضاة عدول ، فجعل الحسن البصرى على قضاء البصرة ، وعامرا الشعبي على قضاء الكوفة كما جعل أبا الزناد كاتبا لأمير الكوفة .ولم يكتف عمر بذلك فى إصلاح الإدارة الإقليمية ، بل تقدم إلى العمال فى أمر العقوبات ألا يأمروا بقطع أو صلب قبل مراجعته هو أولا .

ثم ثنى عمر بالمسائل المالية فرد المظالم ، والمراد بالمظالم الأموال التى استولى عليها بنو أمية بغير حق ، وقد بدأ فى ذلك بنفسه، فخرج لبيت المال عن كل مال لم يرض سبب تملكه ، حتى لم يبق له إلا عقار يسير ببلاد العرب يغل غلة يسيرة فوق عطائه الذى كان يبلغ مائتى دينار فى العام ، ثم أخذ يتتبع أموال بنى أمية يرد منها ماليس مشروع الملكية إلى مستحقه ، وقد هاج ذلك سخط بنى أمية عليه ، وذهبوا ينعون عليه أخذه أموالهم باسم « المظالم» ، فلم تلن لغامزهم قناته، وأراهم أنه لايحجم عن بلوغ الغاية فى التنكيل بهم إذا اقتضى الأمر ذلك. يروى ابن عبد الحكم «أن رجلا من أهل حمص أتاه يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك فى حوانيت بحمص كان أبوه الوليد أقطعه أياها ، فقال له عمر أردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : هذا معى بسجل الوليد . قال : وما يغنى عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم ، قد قامت لهم البينة عليها؟ خل لهم حوانيتهم . فقام روح والحمصى منصرفين ، فتوعد روح الحمصى ، فرجع الحمصى إلى عمر ، فقال : هو الله متوعدى يا أمير المؤمنين . فقال عمر لكعب بن حامد وهو على

حرسه : أخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذلك ، وإن لم يفعل فأتنى برأسه ! فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده . وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرا ، فقال له : قم فخل له حوانيته ! قال: نعم ! نعم ! وخلى له حوانيته » .

وسار عمر فى إصلاح الشئون المالية على الأساس الشرعى ، فالأموال ينبغى أن تجبى من وجوهها وتنفق فى مصارفها الشرعية ، فمن أسلم من أهل الذمة سقطت عنه الجزية ، وقد أسقط الجزية فعلا عن كثير من موالى خراسان وأهل مصر ، وقال مقالته المشهورة : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » ونهى عن أن تصير الأرض الخراجية أرضا عشرية ابتداء من سنة ١٠٠ هـ ، مع عدم التعرض للحقوق التى اكتسبت من قبل ، وألغى وظيفة مالية وظفها أخو الحجاج بن يوسف على اليمن فوق الزكاة ، ونهى العمال عن اقتضاء أطلاق مالية لم يرد بها الشرع ، وقد جمعها فى كتابه إلى عامله على الكوفة فقال « ولا تحمل خرابا على عامر ولا عامرا على خراب ، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن فى الخراج ... أجور الضرابين ، ولا هدية النيروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفيوج ، ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض » .

وقد وسع عدل عمر أهل الذمة من هذه الناحية كما وسع المسلمين ، فإنه لما شكا إليه أهل نجرانية الكوفة تناقص عددهم إلى العشر مع بقاء جزيتهم على حالها ، أمر برد جزيتهم إلى العشر [١] ، كذلك رد جزية

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٧

قبرس إلى ما كانت عليـــه وقت الفتح ، وألغى ما زاده عليها عبد الملك بن مروان [١] ، ويروى البلاذرى أيضا [٢] ، أنه « وفـد عليه قوم من أهـل سمرقنـد فرفعوا إليه ، أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فـكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الناجى ، فحـكم بإخراج المسـلمين على أن ينابذوهم على سـواء . فـكره أهل سمرقنـــد الحرب وأقروا المسلمين » . وأبلغ مـن ذلك فى الدلالة على تحرى عمر العدل المطلق ما رواه البـلاذرى [٣] ، قال : « قال ضمرة عن على بن أبى حملة ، خاصمنـا عجم أهـل دمشق فى كنيسة كان فلان اقطعها لبنى نصر بدمشق ، فأخرجنا عمر منها وردها إلى النصارى » ، ويروى البلاذرى أيضاً [٤]، أن الوليد بن عبد الملك قد أدخل كنيسة يوحنا فى مسجد دمشق بغير رضا النصارى « فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما فعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فـكتب إلى عامله يأمره برد مازاده فى المسجد عليهم ، فـكره أهل دمشق ذلك ، وقالوا نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ، وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحـاربى وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميـع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بهـا ، فرضوا بذلك وأعجبهم . فـكتب به إلى عمر فسره وأمضاه » . ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من أهـــل الذمة .

---

(١) البلاذرى ، ص ١٥٤ .
(٢) نفسه ص ٤٢٢
(٣) نفسه ص ١٢٤
(٤) نفسه ، ص ١٢٥ .

أما ما ينسب إليه فى بعض كتب الفقه من تحامل عليهم ، وأنه كتب إلى عماله بعزلهم عن أعمال الدولة وأخذهم بألوان من الاضطهاد والتضييق عليهم [1] ، فغير مؤتلف مع المستيقن من سيرته على فرض صحته ، وقد يكون نوعا من العقاب كان يعاقب به ذميو الحدود الإسلامية إذا هموا بمظاهرة العدو على المسلمين .

وكما كان عمر حريصا على جباية الأموال العامة من مصادرها الصحيحة . فقد كان كذلك حريصاً على أن تنفق فى مصارفها الشرعية . فمن حيث الفيء ، قد فرض لذرية المقاتلة وعيالهم، عملا بسنة عمر بن الخطاب التى ترك بنو أميه العمل بها ، وكتب إلى عامله على الكوفة : « وانظر من أراد من الذرية الحج فعجل له مائة يحج بها » . وفرض لعشرين ألفا من الموالى كانوا يغزون بخراسان بغير عطاء . وأظهر استعداده لأن يحمل من بيت المال إلى خراسان أموالا إذا كان خراجها لا يفى بعطاء أهلها . ومن حيث أموال الزكاة ، فكانت صدقات كل إقليم تقسم على عهده فى فقراء أهله ، وقد قسم فى فقراء البصرة كل إنسان ثلاثة دراهم وأعطى الزمنى خمسين خمسين ، وفرض للفقيرات من عوانس النساء ، وأعتق كثيراً من الرقاب . وقد كتب إلى أحد عماله « أن اعمل خانات فى بلادك، فمن مر بك من المسلمين فأقروهم يوما وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين . فإن كان منقطعا به فقووه بما يصل به إلى بلده » . وأمر عماله بقضاء الديون عن الغارمين ، فكتب إليه بعضهم : « إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس والأثاث فى بيته » ، فكتب عمر

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٧٣ .

« لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث فى بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه » .
ولما رأى عمر أن ليس للشعراء حق فى بيت المال جعل يجيزهم من عطائه وماله الخاص على قلته ، بالدراهم والدنانير المعدودة ، وقد أدرك الشعراء علة تحرجه هذا فكانوا يقبلون منه العطاء اليسير أو الرد أحيانا بغير عطاء ، ولم يقصروا فى مدحه والثناء عليه .

على أن أهم ميزة تميز عمر بن عبدالعزيز عن غيره من خلفاء الإسلام ورؤساء الدول طرا فيما نعلم إنما هى رغبته الصادقة فى نشر لواء السلم ، لا على بلاده وحدها ولكن على العالم بأسره . ولبيان ذلك نقول إنه عمد فى داخل الدولة الإسلامية إلى الأحزاب التى ناوأت الأمويين منذ قام ملكهم فترضاها وحملها على ما يريد من إيثار السلم والعافية . فالشيعة استجلب مودتهم بأن منع سب على بن أبى طالب على المنابر ، وبأن رد على العلويين (فدكا) التى رآها حقا قديما لهم اغتصب منهم . والخوارج قد كبح جماحهم من طريق المجادلة بالحسنى والإقناع بالحجة والبرهان . فعندما ظهر شوذب الخارجى بأرض فارس أمر عمر ألا يقاتلوا حتى يسفكوا دما أو يفسدوا فى الأرض ، وكتب فى الوقت نفسه إلى شوذب يطلب اليه المناظرة فى دعواه ، فأنفذ إليه الخارجى اثنين من فقهاء الخوارج ليناظراه ، وقد استطاع عمر أن يهدم كل حجة أورداها الا ما احتجا به عليه من إقراره بيعة يزيد بن عبدالملك بولاية العهد مع ما يعلم من قبح سيرته ، وكان من وراء هذه المناظرة الطريفة أن انضم أحد الخارجيين إلى عمر ، أما الآخر فعاد إلى أصحابه وأنهى إليهم على ما يظهر من سيرة الخليفة ما حملهم على السكون طوال عهده . وأما الموالى فقد قطع أسباب شكواهم ، بأن أسقط الجزية كما

رأينا عنهم ، وبأن فرض لمقاتلتهم عطاء . وأما العصبية القبلية من يمنية ومضريه وربعية فقد هدأ من حدتها ، بأن ردع الشعراء الذين كانوا يذكون نارها ، وبأن اختار ولاته بالنظر إلى كفايتهم لا إلى قبائلهم .

أما من حيث العلاقات الخارجية ، فقد سلك عمر بن عبد العزيز فى الأمر مسلكا بدعا لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . ذلك أنه أقفل جميع الجيوش الاسلامية التى كانت تغزو وراء الحدود ، أقفل مسلمة بن عبد الملك وكان مرابطا حول أسوار قسطنطينية وأعانه على القفول بأموال بعث بها إليه . وأقفل الغزاة بما وراء النهر على كره منهم كما أقفل من كانوا يغزون بالسند . على أن عمر لم يقف فى هذا الأمر الخطير عند هذا الحد ، بل أتبع العدول عن سياسة العنف بالدعوة السلمية الى الإسلام . يروى البلاذرى أنه لما أقفل الجيوش التى كانت تغزو بما وراء النهر كتب إلى ملوك تلك الجهة من الترك يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم . ولما انتقض ملوك السند كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . قال البلاذرى : « وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلم جيشبة والملوك وتسموا بأسماء العرب » كذلك كانت سياسته بإزاء بربر المغرب الذين أشجوا الجيوش العربية زهاء ثمانين عاما. يقول البلاذرى : « ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (رضه) ولى المغرب اسمعيل بن عبدالله ابن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام وكتب إليهم عمر كتبا يدعوهم بعد إلى ذلك ، فقرأها اسمعيل عليهم فى النواحى فغلب الإسلام على المغرب . ويذكر المؤرخ اليونانى تيوفان أن عمر كتب أيضا إلى الأمبراطور البيزنطى يدعوه إلى الإسلام .

وكأن عمر بن عبد العزيز قد اطلع بلحظ الغيب على نظمنا الحديث التى

تفرض على الدولة الإشراف على التعليم والعمل على نشره بين أبنائها . فقد أراد تعليم الناس كما يؤخذ من قوله فى رواية ابن عبد الحكم «إن للإسلام حدودا وشرائع وسننا . . . . . فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها » بل لقد أخذ فى ذلك بالفعل فبعث يزيد بن أبى مالك الدمشقى والحارث بن محمد الأشعرى إلى البادية ليفقها الناس وأجرى عليهما رزقا . ثم هو أول خليفة أمر بجمع أحاديث رسول الله وتدوينها . نقل السيوطى « أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر محمد بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء . وأخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان عن عمر ابن عبد العزيز أنه كتب إلى الآفاق أن انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه » وقال فى فتح البارى « يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوى ».

* * *

وبعد ، فماذا كان أثر تلك الجهود كلها ؟ لقد أدت إلى الغاية التى كان يرمى إليها عمر . فقد طاف بالأمة الاسلامية إذ ذاك طائف الزهد والورع والتدين اقتداء بخليفتها ، والناس على دين ملوكهم كما قالوا قديما . يروى الطبرى « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ مصانع وضياع ، وكان الناس يلتقون فى زمانه ، فأنما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ، ماوردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ وما تصوم من الشهر ؟ وأصبح الناس وقد شملتهم نعمتا الرضا واليسر . قال « كثير » يخاطب عمر ويمدحه :

تكلمت بالحق المبين وإنما   تبين آيات الهدى بالتكلم

وصدقت موعود الذى قلت بالذى فعلت فأمسى راضياً كل مسلم

وروى ابن عبد الحكم قال : « قال يحيى بن سعيد : بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منى ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين » .

أجل ، لقد أغنى عمر الناس جميعا إلا نفسه وأهله . فلم ير ولى قوم أعف عن مالهم منـــه ، ولم ير أهل بيت أصبر على الطعام الخشن والثوب المرقوع والبيت المتهدم منه ومن أهل بيته . ولقد أراح عمر الناس ولكنه أتعب نفسه فكان حركة دائمة يعمل ليل نهار حتى ذهبت نضرته واحترق جسمه .وزاده هما فقدانه فى آجال متقاربة من عهده القصير أحبابه وأعوانه : فقد ابنه عبدالملك، وأخاه سهلا ، ومولاه مزاحما ، فلم يقو جسمه على احتمال العمل والألم ، فأسلم الروح بخناصرة فى ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ولما يعد التاسعة والثلاثين من عمره . وقد دفن بدير سمعان قريبا من دمشق .

لا ندرى ماذا كان عمر صانعا لو مدله فى حياته ؟ أغلب الظن أنه كان يتلافى موضع الضعف من إصلاحه فيقيم هذا الاصلاح على أساس ثابت لا يتزعزع بمجرد موته . ومهما يكن من شىء فقد فاز عمر بن عبد العزيز بتقدير أنصاره وخصومه على السواء فهو عند أهل السنة مجدد المائة الأولى وآخر الخلفاء الراشدين ، وقد رضى عنه العلويون وأهدى إلى روحه فى أواخر القرن الرابع شاعرهم الشريف الرضى أبياتا من الشعر حارة جميلة وكان موضع احترام الخوارج وتقديرهم ، ثم إن العباسيين عندما قامت دولتهم احترموا قبره فلم ينبشوه كما نبشوا قبور غيره من بنى أمية ، على أن أبلغ من وصفه وأبنه رجل كان بحكم الظروف السياسية خصمه العنيد

بل عدوه اللدود ، ذلك ملك الروم أليون الثالث . أخرج ابن الجوزى عن محمد ابن معبد قال : « أرسل عمر بن عبدالعزيز بأسارى الروم ففادى بهم أسارى من المسلمين . قال فدخلت على ملك الروم يوما فإذا هو جالس على الأرض مكتئبا حزينا . فقلت ماشأن الملك ؟ فقال أو ماتدرى ماحدث ؟ قلت ما حدث ؟ قال مات الرجل الصالح ! قلت من ؟ قال عمر بن عبد العزيز ، ثم قال ملك الروم : لأحسب أنه لو كان أحد يحي الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز . ثم قال إنى لست أعجب من الراهب إن أغلق بابه ورفض الدنيا وترهب وتعبد ، ولكنى أعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها وترهب » .

أما نحن فنلحظ فيه خير نزعاته وأشرف عواطفه : نلحظ فيه حبه للسلام وسعيه فى توفيره فى العالم ، فهو بحق داعية السلام فى القرن الأول الهجرى والثامن الميلادى ، وكفى بذلك مفخرة فى الدنيا ، وقربة فى الآخرة .



نساء الخوارج[1]

ينبغى قبل التكلم على نساء الخوارج أن نلم إلمامة يسيرة بالخوارج عامة فنبين للقارىء من هم ؟ وما مبادئهم وآدابهم ؟ وما بداية أمرهم ونهايته ؟ فإذا فرغنا من ذلك انتقلنا إلى الكلام على نسائهم عامة والشهيرات منهن خاصة .

فالخوارج فرقة عربية إسلامية قديمة ولعلها أقدم الفرق الإسلامية منشأ وظهورا . وأصلهم جماعة من جيش الإمام على بن أبى طالب الذى كان يحارب معاوية بن أبى سفيان فى وقعة صفين المشهورة فى سنة ٣٧ هـ . فلما اجتمع رأى الفريقين المتحاربين على قبول التحكيم بدل المضى فى القتال ، ورجع كل فريق إلى قاعدته : على إلى الكوفة ، ومعاوية إلى دمشق ، رأت تلك الجماعة أن قبول التحكيم كان ضلالا من الضلال ، وأن الواجب كان يقضى بأن يمضوا فى القتال حتى ينزل الله حكمه بنصر فريق على فريق ، ومن ثم مقالتهم المشهورة « لاحكم إلا لله » . واعتبروا كل من قبل التحكيم مرتدا عن الإسلام ، لا يبرء من ردته إلا بالتوبة ورفض التحكيم واستئناف القتال . وقد بدءوا فى ذلك بأنفسهم ، وأرادوا عليا على مثل ذلك ، فأبى أن يتابعهم على رأيهم وأقام الحجة عليهم . فما كان منهم إلا أن اعتزلوه ، ونزلوا مكانا بظاهر الكوفة يقال له « حروراء » منابذين له مجاهرين بالخلاف عليه . ومن ثم عرفوا بالحرورية ، وبالخوارج لخروجهم على على ، وبالمحكمة لقولهم « لاحكم إلا لله » .

---

(١) خلاصة محاضرة ألقيت بمعهد المعلمات بالاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٩٤٨.

ونلاحظ قبل كل شيء ، أن الخوارج عرب خلص ينتمى أغلبهم إلى قبائل تميم وحنيفة وربيعة الذين كان لهم فى الجاهلية عز ومنعة وبأس فلما جاء الإسلام وألقى بجرانه على الجزيرة اعتنقوه واعتقدته قلوبهم بعد أن نطقت به ألسنتهم، واستساغوا منه بوجه خاص مبادئه الديمقراطية التى تلائم مزاجهم وتتفق وتقاليدهم ، وأنزلوها من قلوبهم منزلة مثلهم القبلية التى يفدونها عند الاقتضاء بمهجهم وأرواحهم . وقد أبلوا فى إقامة الدولة العربية ومد فتوحها وفى نشر الدعوة الإسلامية أعظم البلاء . وكانوا يظنون أنهم سيضيفون بذلك عزا طريفا إلى عزهم التليد ، ويضمون مجدا حديثا إلى مجدهم القديم ، فإذا بهم أصبحوا يرون أن قد غلبوا على أمرهم ، وأن العز كله ، وأن المجد كله ، قد أصبح لأرستقراطية مكة والمدينة ، فأعادوا حركة الردة جذعة ولكن فى صورة إسلامية لاغبار عليها . فلم يكن موقفهم من التحكيم فى حقيقة الأمر إلا ظاهرا يحجب باطنا هو ماذكرناه .

* * *

أصبحت الخوارج فى حروراء يرون أنهم وحدهم (ومن انضم اليهم بعد) الفئة المسلمة المؤمنة حقا ، وأن من سواهم من المسلمين كفار يجب جهادهم وردهم إلى حظيرة الدين . وقد شدوا حيازيمهم للأمر العظيم، وشمروا عن سواعدهم للخطب الجسيم ، وأقبلوا على أمرهم فى حماسة دينية متقدة ، وشجاعة نادرة ، وإخلاص عميق، وصبر عجيب .

ولكى يميزوا أنفسهم عن سائر المسلمين ، ويصلوا إلى تحقيق غرضهم الدينى والدنيوى . صاغوا لأنفسهم مذهبا أو برنامجا شاملا متحدا فى أصوله وجوهره ويختلف فى الفروع باختلاف الخوارج أنفسهم من حيث الغلو والاعتدال . فأما

من الناحية السياسية فجميع الخوارج يرون الشورى وأن الخلافة حق لكل من اتصف بصفاتها وحوى مايؤهل لها من تقوى وزهد وشجاعة ، ولا عبرة عندهم بالحسب والنسب والعربية والأعجمية . أخذوا ذلك من قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » بل لقد ذهب بعض فرقهم إلى إمكان الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة لأن الناس يتوازعون ويتكافون باحتياج بعضهم إلى بعض واشتباك علاقاتهم ، ففي ذلك ما يكفي لردهم عن الظلم وصدهم عن الجور وعدم الإنصاف .

ثم إن للخوارج من ناحية العقيدة المحضة آراء فى معنى الإيمان والمعاصى مايكفر منها ومالا يكفر ، وفى التقية ، وهى إسرار الإيمان وإظهار الكفر عند الحرج وخوف الفتنة ، هل تجوز أو لاتجوز ، وفى غيرهم من المسلمين هل هم كفار عقيدة أو كفار نعمة ، وفى معاملتهم والتزوج منهم وتزويجهم وموارثتهم، هل تجوز أولاتجوز. هذه الآراء مبينة فى أخبارهم مقررة فى تواريخهم ولهم فقهاء مجتهدون يبينون لهم الحلال والحرام ، على حسب اجتهادهم وفقههم، كما لهم شعراء بلغاء ينشرون مثلهم وعواطفهم فى شعر بليغ سيار .

والخوارج جميعا يتصفون بأخلاق عظيمة وصفات نبيلة منها الزهد فى الدنيا والحرص على طلب الشهادة ويبرأون من الكذب، ولهم فى ذلك نوادر طريفة وأخبار عجيبة .

فمن الأمثلة الدالة على شدة زهدهم، مايروى من أن زياد بن أبى سفيان بعد أن قتل عمرو بن أدية الخارجى سأل مولى له عن سيرته فقال أأطنب أم أختصر؟ فقال له بل اختصر ! فقال : ما أتيته بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط ! .

ومن أمثلة شجاعتهم أن منهم من طعن فى الحرب فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يتلو قوله تعالى « وعجلت إليك رب لترضى » .

ومن أمثلة استمساكهم بالصدق ما يروى من أن أحد زعمائهم وهو مرداس ابن أدية أدخل حبس عبيدالله بن زياد أمير العراق فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقه ، فقال : إنى أرى لك مذهبا حسنا ، وإنى لأحب أن أوليك معروفا . أفرأيت إن تركتك تنصرف ليلا إلى بيتك، أتدلج إلى ؟ قال : نعم ! قال فكان يفعل ذلك . ولج عبيد الله فى حبس الخوارج وقتلهم . فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلا من الشرط ، فقال ابن زياد : ما أدرى ما أصنع بهؤلاء ، كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم قتلوا قاتله . لأقتلن من فى حبسى منهم. وأخرج السجان مرداسا إلى منزله كما كان يفعل . وأتى مرداسا الخبر. فلما كان السحر تهيأ للرجوع . فقال له أهله : اتق الله فى نفسك ، فإنك إن رجعت قتلت . فقال إنى ما كنت لألقى الله غادرا . فرجع إلى السجان . فقال قد علمت ماعزم عليه صاحبك . فقال السجان : أعلمت ورجعت ؟ ! .

ولفرط شجاعتهم فى الحرب وشدة حملاتهم واستقتالهم كانت أعداد يسيرة منهم تهزم جماعات كبيرة من جيوش الدولة كما حدث فى واقعة آسك إذ هزم أربعون من الخوارج ألفين من جند الدولة الأموية . وفى ذلك يقول شاعر الخوارج :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بآسك أربعونا ؟
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

• • • •

فمن أجل الديمقراطية المتطرفة التى كان يقول بها الخوارج فى أمر الخلافة

قد أسخط الخوارج بنى أمية وقريشا وأرستقراطية العراق حيث تعددت فرقهم وانتشرت تعاليمهم وعظم نفوذهم . ومن أجل تكفيرهم سائر المسلمين واستحلالهم منهم ما يستحلون من الكفار قد أثاروا عليهم سخط العامة جميعا ولقد تجردت الدولة الإسلامية لقتالهم والعمل على استئصالهم وحاربتهم حربا طاحنة لا هوادة فيها دامت نحو قرن ونصف قرن من الزمان. حاربهم على يوم النهروان وأوقع بهم هزيمة منكرة. وقد جر انتصاره عليهم إلى اغتيالهم إياه على ما هو معروف. وحاربهم زياد بن أبى سفيان وابنه عبيد الله بن زياد والمغيرة بن شعبة . وحاربهم الحجاج بن يوسف بنفسه وبقواد كبار أشهرهم المهلب بن أبى صفرة . وقد خضد الحجاج شوكة الخوارج الغلاة المعروفين بالأزارقة والصفرية وقتل كبار زعمائهم أو خلفائهم أمثال نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، وعبيدة بن هلال ، وشبيب . كما حوربت الخوارج النجدية فى شرق بلاد العرب وقتل زعماؤهم نجدة وأبو فديك . أما الأباضية وهم أكثر فرق الخوارج اعتدالا فلم يلجأوا إلى العنف كما فعلت الفرق الخارجية الأخرى . لذلك احتملتهم الدولة الأموية فسلموا من الإبادة وبقوا حتى يومنا هذا فى أنحاء من العالم الإسلامى وخاصة بلاد المغرب وعمان وشرقى إفريقية .

ولما اضطرب أمر الدولة الأموية ظهرت الخوارج مرة أخرى فى الحجاز واليمن وشمال إفريقية ، ثم قامت الدولة العباسية فذهبت ريح الخوارج بذهاب دولة العرب وقيام دولة عصبيتها من الأعاجم . واستحال الخوارج قطاع طرق ومتلصصة ، وكانت آخر خرجة مشهورة لهم خرجة الوليد بن طريف الشيبانى فى الجزيرة وأرمينية وذلك على عهد الرشيد . وبقيت بقية منهم إلى زمن المتوكل على الله العباسى . ثم ينتهى أمرهم وتخمد حركتهم فلا نحس لهم صوتا بعد ذلك.

ولعل القارىء يكون قد تبين مما تقدم سبب انقراض الخوارج وذهاب ريحهم . إن الخوارج لم يؤتوا من قبل مذهبهم السياسى ، فذلك المذهب ديمقراطى إسلامى لا غبار عليه . ولم يؤتوا بالطبع من قبل غيرتهم الدينية وورعهم واستقامة وأخلاقهم ، فذلك كان مثار إعجاب الرأى العام الإسلامى وخاصة رأى المثقفين منهم أمثال الإمام مالك بن أنس وأبى العباس المبرد صاحب كتاب « الكامل » وإنما أتى القوم من قبل تنطعهم فى الدين وعدهم سائر المسلمين كفارا خارجين من الملة وانعدام الروح السياسى عندهم . فذلك الذى جر عليهم وعلى مذهبهم البوار .

* * *

ونساء الخوارج يشاركن رجالهم فى كل ماذكرنا من فضائلهم من تقى وورع وشجاعة وأدب واجتهاد .

ولو أن ألد خصوم المرأة وهو أبو العلاء المعرى استحضر عند نظمه قصيدته التائية الكبرى سير نساء الخوارج ما قال :

وإن تعط الإناث فأى بؤس ... تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا ... ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ... ولا فى غارة متغشمات
ودفن والحوادث فاجعات ... لإحداهن إحدى المكرمات
وقد يفقدن أزواجا كراما ... فيا للنسوة المتأيمات
يلدن أعاديا ويكن عارا ... إذا أمسين فى المتهضمات

ولنمثل لنساء الخوارج بذكر طائفة من مشهوراتهن يستبين منها القارىء صدق وصفنا لهن .

(١) فمنهن قطام بنت علقمة من تيم الرباب وكانت من أهل الكوفة . وهى التى أراد عبدالرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب التزوج منها فقالت له: «لا أقنع منك إلا بصداق أسميه لك ، وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وأن تقتل عليا» . فقال لها : لك ماسألت ! فكيف لى به ؟ قالت تروم ذلك غيلة . فإن سلمت أرحت الناس من شر ، وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت صرت إلى الجنة ونعيم لا يزول . وفى ذلك يقول ابن ملجم :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب على بالحسام المصمم

فلا مهر أغلى من على وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

ونحن نعرف ماصار إليه أمر ذلك الفاتك من قصاص عاجل عادل .

(٢) ومنهن البلجاء التميمية وكانت كما يقول أبو العباس المبرد من مجتهدات الخوارج : وكان أبو بلال مرداس بن أدية قد لقيه صاحب له فقال : يا أبا بلال ! إنى سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء ، وأحسبها ستؤخذ . فمضى إليها أبو بلال ، فقال لها : «إن الله قد وسع على المؤمنين فى التقية ، فاستترى فإن هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك . قالت : «إن يأخذنى فهو أشقى بى . فأما أنا فما أحب أن يعنت إنسان بسببى . فوجه إليها عبيد الله بن زياد فأتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . فمر بها أبو بلال والناس مجتمعون ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاء ! فعرج إليها ، فنظر ، ثم عض على لحيته وقال لنفسه : «لهذه أطيب نفسا عن بغية الدنيا منك يامرداس!»

(٣) ومنهن أم كهمس : كان ممن قتل ابن زياد من الخوارج رجل يقال له كهمس ، وكان من أبر الناس بأمه . فقال لها يا أمتا ! لولا مكانك لخرجت

فقالت « يا بنى ! قد وهبتك لله » فخرج فحارب فقتل مع جماعة من أصحابه ، فقالت فيهم أم الجراح العدوية، وهى من نساء الخوارج، ترثيهم وتخاطب قاتلهم ابن زياد :

وما بعد مرداس وعروة بيننا ... وبينكم شيء سوى عطر منشم

فلست بناج من يد الله بعدما ... هرقت دماء المسلمين بلا دم

(٤) ومنهن بنت عروة بن أدية ، قالوا لما قتل ابن زياد عروة بن أدية بعث برأسه إلى ابنته . فجاءت وجثته مطروحة بين يدى ابن زياد ، فقال لها « أنت على دينه ؟ » قالت « وكيف لا أكون على دينه ، وما رأيت قط خيرا منه ! » وأمر بها فقتلت مع أبيها .

(٥) ومنهن جذعة ، قالوا خرج رجل وامرأة ومعهما سيفان فحكما فى مسجد البصرة ، (أى قالا لا حكم إلا لله) ثم أخذت المرأة نحو بنى سليم، وأخذ الرجل نحو رحبة بنى تميم ، فرآها قد بعدت منه ، فناداها « يا جذعة ! اقربى منى ! » فقالت « إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فقتلهما الناس .

(٦) ومنهن المرأة التى أرادت الثأر لمقتل نافع بن الأزرق كبير الخوارج الأزارقة والمقتول فى وقعة دولاب بالأهواز سنة ٦٥ هـ قال سلامة الباهلى : « قتلت نافعا فطالبتنى بثأره امرأة كانت تدعونى إلى المبارزة ونحن نقاتل عبيد الله ابن الماحوز »

(٧) ومنهن أم حكيم زوجة قطرى بن الفجاءة على رأى أو بعض من كان يقاتل معه على رأى آخر . روى الأصبهانى بإسناده قال « إن امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة يقال لها أم حكيم وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجها وأحسنهم بدينهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك .

فأخبرني من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز !

أحمل رأسا قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عنى ثقله !

قال وهم يفدونها بالآباء والأمهات فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها ، وفى أم حكيم هذه وفى وقعة دولاب يقول قطرى :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

من الخفرات البيض لم ير مثلها شفاء لذى بث ولا لسقيم

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر جد لئيم

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم

إلى أن يقول :

فلو شهدتنى يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم

رأت فتية باعوا الاله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

(٨) ومنهن جهيزة أم شبيب رأس الخوارج الصفرية ؛ وغزالة زوجته . قالوا لما اشتدت الحرب بين شبيب وبين الحجاج بن يوسف أمير العراق كانت جهيزه أم شبيب وغزالة زوجته تقاتلان معه . ونذرت غزالة لله إن هى دخلت الكوفة عاصمة الحجاج أن تعمد إلى المسجد الجامع فتصلى فيه وتتلو سورتى البقرة وآل عمران . ودخل شبيب الكوفة وخرج منها الحجاج هاربا ، وقد وفت غزالة يومذاك بنذرها . ويشير إلى ذلك شاعر من الخوارج يقال إنه عمران بن حطان بقوله يعير الحجاج فراره من غزالة :

صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت كتائبه كأمس الدابر

أسد على وفى الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى   بل كان قلبك فى جناحى طائر
ألق السلاح وخذ وشاحى معصر   واعمد لمنزلة الجبان الكافر

ثم إن الحرب استؤنفت بين شبيب والحجاج فقتلت جهيزة أم شبيب وكانت قد قاتلت قتالا شديدا حتى قال الناس :

أم شبيب ولدت شبيبا   هل تلد الذيبة إلا ذيبا ؟ !

وقتلت كذلك زوجته غزالة ، واحتز رأسها فقال الحجاج عند ذلك : والله ما قوتل قبل اليوم ولا قبل موت هذه ! »

(٩) ومنهن امرأة جىء بها إلى الحجاج وبحضرته مولاه يزيد بن أبي مسلم وكان يستسر برأى الخوارج، فكلم الحجاج المرأة فأعرضت عنه، فقال لها يزيد : « الأمير ويلك يكلمك » فقالت : « بل الويل لك أيها الفاسق الردىء » قالوا والردىء عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكتمه .

(١٠) ومنهن امرأة تسمى مريم كانت تقاتل مع أبي حمزة الخارجي الذى خرج بالحجاز ، وكانت تقاتل مع زوجها ، فقتل زوجها وقتلت وهى ترتجز :

أنا ابنة الشيخ الكبير الأعلم   من سال عن اسمى فإسمى مريم
بعت سوارى بسيف مخذم

(١١) ومنهن الفارعة ليلى بنت طريف الشيبانى. رووا أن الوليد بن طريف الشيبانى خرج فى سنة ١٧٨ ه فى خلافة هارون الرشيد، بالجزيرة وأرمنية ، وفتك بعامل الرشيد واستطار شره فى تلك الجهات استطارة النار فى الهشيم

وجبى الأموال، فسير الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيبانى فقاتله فقتله ، فصبحتهم أخته ليلى بنت طريف مستعدة عليها الدرع فجعلت تحمل على الناس فعرفت . فقال يزيد قائد جيش الرشيد « دعوها» ثم خرج إليها فضرب بالرمح

قطاة فرسها ثم قال « اعز بي عزب الله عليك ! » فاستحييت وانصرفت . ثم رثت أخاها الوليد بهذه المرثية التي تعد من فاخر الشعر العربي وناصعه :

بتل تباثى رسم قبر كأنه ... على علم فوق الجبال منيف
تضمن جودا حاتميا ونائلا ... وسورة مقدام وقلب حصيف
ألا قاتل الله الجثى كيف أضمرت ... فتى كان بالمعروف غير عفيف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ... فيارب خيل فضها وصفوف
ألا يالقومى للنوائب والردى ... ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب قدهوى ... وللشمس همت بعده بكسوف
فياشجر الخابور مالك مورقا ... كانك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة ... وكل حصان باليدين عزوف
فلا تجزنا يا ابنى طريف فإننى ... أرى الموت نزالا بكل شريف
فقدناك فقدان الربيع فليتنا ... فديناك من دهمائنا بألوف

وقالوا واعتمر الرشيد فى تلك السنة فى شهر رمضان شكرا لله على قتل الوليد ابن طريف .

• • •

كانت غزالة خاتمة نساء الخوارج اللاتى ظهرن على مسرح الحوادث العامة ونقلت الينا أخبارهن أو أطراف منها . وكل من ذكرنا منهن يتصف بصفات الشجاعة والجراءة والغيرة الدينية والثبات على المبدأ، هذا الى ثقافة عالية ملحوظة تسلك غير واحدة منهن فى عداد مجتهدى هذه الفرقة وخطبائها وشعرائها .

والمرأة الخارجية إنما تحتفظ فى كل ذلك بتقاليد المرأة العربية الصميمة إن

قبل الاسلام وإن صدر الدولة الاسلامية . فأما قبل الاسلام فنعد بلقيس التي كانت ملكة عظيمة على بلاد اليمن والتي راسلها سليمان ملك بنى إسرائيل ، وقد قص القرآن الكريم قصتها فى سورة « النمل » فليرجع اليها .

ونعد الزباء ملكة تدمر وقد ساجلت الامبراطور الرومانى أوريليان حربا شديدة فى القرن الثالث الميلادى . كما نعد سجاح بنت الحرث التميمية التى قادت الجيوش فى حرب الردة لقتال الخليفة أبى بكر الصديق . وأما صدر الدولة الاسلامية فنذكر على سبيل المثال نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة الخليفة الثالث عثمان بن عفان وكانت عند زواجها منه جميلة وسيمة وفى عنفوان شبابها ، على حين أن زوجها كان شيخا قد جاوز السبعين من عمره ، ومع ذلك فقد كانت وفية له حيا وميتا . فهى التى قامت تذود عنه يوم الدار فنفح أحد قتلة عثمان يدها بالسيف فأطار أصابع يدها ، فلما قتل عثمان وأراد معاوية خطبتها إعجابا منه بثغرها فيما يقولون عمدت إلى أسنانها فهتمتها بخاتم فى إصبعها ليذهب جمال ثغرها فينصرف عنها معاوية ، وقد كان ذلك .

ولا ننسى عائشة بنت أبى بكر الصديق وزوجة الرسول عليه السلام وقد جمعت من الحديث ووعت من الفقه ما جعلها عمدة المحدثين والفقهاء ، ولقد قادت الجيوش فى وقعة الجمل واستهدفت للموت حتى ليروون أن الجمل الذى كان عليه هودجها صار مثل القنفذ لكثرة ما وقع فيه من السهام فى تلك الوقعة .

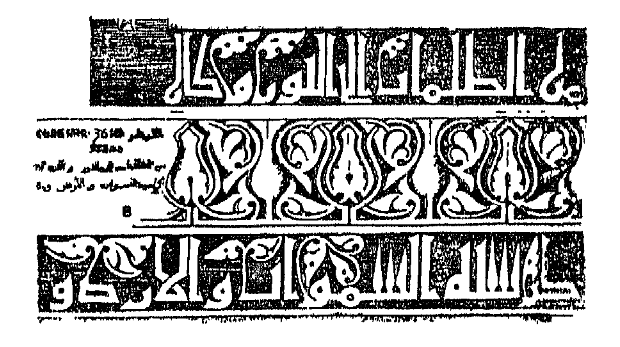
ثم تبرز المرأة العربية الخارجية فتحتفظ بهذه التقاليد طوال مائة وخمسين عاما أو تزيد فلما تحولت الحال فى الدولة الإسلامية وغلب رجال العرب على أمرهم على أيدى موالى الفرس ومماليك الترك وعادوا إلى بواديهم يعيشون رعاة إبل وغنم أو متلصصة وقطاع طرق . فكذلك كان شأن المرأة العربية ، فقد غلبت

على مكانتها ومنزلتها ، غلبها جوارى وسريات الأعاجم من فرس وترك وروم وصقالبة فعادت إلى الانزواء والخمول بعد نباهة الذكر وعلو القدر .

ومما هو جدير بأن يلحظ فى هذا المقام أن مجد المرأة العربية ، قد صاحب مجد الدولة العربية ، ولا شك أن بين الأمرين اتصالا وثيقا. فالمرأة العربية الخارجية التى وصفناها هى من نوع المرأة التى أنجبت أولئك القواد العظام والجنود البواسل والإداريين الكبار الذين شادوا الدولة العربية الإسلامية القديمة ورفعوا عمادها ،

أم شبيب ولدت شبيبا هل تلد الذيبة إلا ذيبا !

فلما صار الأمر إلى ما صار إليه انحط المستوى الأخلاقى للمرأة المسلمة بانحطاط المستوى الأخلاقى العام . يروى أن المعز لدين الله الفاطمى لبث زمنا يتهيب الإقدام على فتح مصر ، فلما قيل له إن نساء قصر الأخشيد مستهترات ولا يعبأن بالفضيلة قال « الآن فتحت مصر » وسير من فوره إلى مصر جوهرا بحملته المشهورة ؟



الأدب العربى المصرى[1]

تاريخه ، إهمال دراسته

١

تألفت منذ أشهر بمدينة القاهرة جماعة من أنصار التاريخ وأساتذته ، والغرض من تأليفها دراسة التاريخ المصرى وإذاعته بين جمهور المتعلمين بإلقاء المحاضرات التاريخية أو نشرها فى مجلة خاصة بها . ومن أمانى تلك الجماعة التى ترجو أن تحققها الأيام وضع كتاب كبير فى تاريخ مصر ، يكون مرجعا للقراء وعمدة للبحاث فى التاريخ المصرى .

نزعة شريفة ، وعمل جليل ، له فى تكوين قوميتنا المصرية وتقويتها أثر غير ضعيف . على أن قومية الأمة إنما تقرب من حد الكمال متى عرفت الأمة تاريخها تاما غير مبتور . وذلك بأن يدرسه أبناؤها من جميع نواحيه السياسية والمادية والأدبية . فإنا إذا اعتقدنا أن الأمة كائن حى ، واعتقدنا كذلك أن أحسن التواريخ ما صور لنا ماضى الأمة أتم تصوير ، فلا بد أن ننساق مع القياس المنطقى فنقول : إن التاريخ نفسه يجب أن يكون من حيث تصويره الأمة كائنا حيا ذا جسم وروح . وما الجانب الجثمانى للتاريخ إلا ما كان منه متعلقا بالسياسات والماديات . أما الجانب الروحانى فما كان متعلقا بالأدب وما ينتسب إليه من العلوم .

---

(١) مقالة نشرت بمجلة السفور ، عدد ١٧١ : ١٦ سبتمبر ١٩١٨ ، وقد قصدنا بنشر هذا المقال والذي يليه مجرد اثبات تاريخ الفكرة لا أكثر .

وهيهات أن يفقـه قارىء كنه تاريخ أمة من الأمم إذا اقتصر على الجـانب الجثمانى من تاريخها وأغفـل الجانب الروحانى . خذ لذلك مثـلا أمة الإغريق القدماء . فحياة هذه الأمة السياسية مملوءة بالعيوب والنقائص . ولو أنك أردت الحكم عليها من تاريخها السياسى لجعلتها فى أخريات الأمم التاريخية . ولـكنك إذا ما قرأت أدبها فبهرك ماترى من روعة وجمال لم تلبث أن تنسـخ حكمك وترفعها فوق أمم الأرض مكانا عليا .

فلا بد لمن يريد أن يفقه تاريخ أمة من الأمم أن يطالع فى صحيفتها الأدبية نزوات عواطفها ، وحركات أفكارها ، كما يطـــالع فى صحيفتها السياسية نظام حكومتها وتحرك جيوشها وتعاقب أسرها الحاكمة عليها .

من أجل ذلك نرى أن عمل جماعة التاريخ المصرى فى حاجة ماسة إلى عمل جماعة أخرى ، تتوفر على جمع الأدب العربى المصرى من شعر ونثر ، ثم دراسته ، ووضع تاريخ له تـكون صلته بتاريخ أدب اللغة العربية العام صلة تاريخ الأدب الأمريكى بتاريخ أدب اللغة الانجليزية العام .

لقد طال العهـد على إهمال الأدب المصرى وتاريخـه ، حتى أصبح أكثرنا يعتقد ألا أدب للغة العربية المصرية . ومصدر ذلك الاعتقاد فى رأينا أن أغلب الـكتب العربية والافرنجية التى وضعت فى تاريخ أدب اللغة العربية قد أغفلت الأدب المصرى . ولا نعلم كتابا عربيا يسلم من ذلك النقد إلا كتاب « أدب اللغة العربية » لجرجى بك زيدان . على أن مؤلف هذا الـكتاب إنما عطف على الأدب المصرى فى العصور الأخيرة ، لأنه جزء متمم لأدب اللغـــة العربية لا لأنه قائم بنفسـه .

وسنبين فى مقال تال أسباب ذلك الإهمال إن شاء الله .

الأدب العربى المصرى وتاريخه (١)

أسباب إهمالهما

٢

بينا فى مقالنا السابق ضرورة العمل على جمع تراثنا الأدبى ووضع تاريخ له يدرس فى المدارس ثانويها وعاليها . ووعدنا أن نبين ماصرف أقلام الكتاب الأقدمين والمحدثين عن الأدب المصرى . وها نحن أولاء نفى القارىء بما وعدنا .

لقد كان السبب الأساسى لذلك التقصير الأدبى فى نظرنا : الاعتقاد القديم العام بأن الأدب المصرى أحط منزلة وأقل مقدارا من أخويه العراقى والأندلسى . فليس فى مصر إذا عدت الشعراء يوم الفخار من يسامى جريرا أو أبا نواس والمتنبى وابن هانىء ، ولا من الكتاب والفلاسفة من يشق غبار عبد الحميد وابن المقفع وابن سينا وابن رشد . ذلك الاعتقاد إن يكن على وجه الإجمال صحيحا فإنه لدى التفصيل لا يسلم من معرة الخطأ وركوب الاعتساف . ولو درس الأدب المصرى القديم حق دراسته لارتفع أقوام وانخفض آخرون ، ولكان للأدب العربى عامة نظام غير نظامه المعهود .

فلنقل الحقيقة المرة على علاتها : لنعتقد مع الأقدمين بأن الأدب المصرى أقل منزلة وأقل مقدارا من أخويه العراقى والأندلسى . فما مصدر تلك الحطة وهذه القلة ؟ لكى نجيب على هذا السؤال يجب أن ننظر إلى حال مصر السياسية من

---

(١) نشرت بالعدد ١٧٢ من مجلة السفور سنة ١٩١٨ .

لدن الفتح العربي إلى مختتم القرن الثامن عشر ، أى إلى مبدأ النهضة الحديثة . وذلك لاستحكام الصلة بين فساد تلك الحال سياسيا و نقص الأدب المصرى فى عهدها .

لقد تعاقب على مصر فى تلك المدة حالات سياسية ثلاث : فكانت مصر إما ولاية تابعة لغيرها ، كما كانت زمن الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى عباس ، وإما مملكة مستقلة تحكمها خلافة شيعية كما كانت زمن الخلافة الفاطمية وإما مملكة تابعة لخليفة أجنبي وخاضعة لحكومة غير مصرية كما كانت زمن الأيوبيين والمماليك وولاة الأتراك العثمانيين .

ذلك الاستخذاء السياسى وهذا الاستقلال المقرون بالخضوع لخلافة شيعية قد أثر فى الأدب المصرى أسوأ التأثير .

ذلك بأن الأدب عامة إنما يزكو فى دور العزة وأمكنة السلطان ويذوى فى مواطن الذلة والخضوع . والأدلة على ذلك كثيرة متعددة .

فالأدب الإغريقى علا وامتد نوره زمن حرية الإغريق السياسية ، وخمدت جذوته بالفتح المقدونى . والحياة العلمية الزاهية التى كانت بالإسكندرية إبان حكم البطالمة إنما تأدى إليها الاعتلال والموت بالفتح الرومانى . ثم إن الأدب من شأنه أن ينبسط ظله فى أرض ولاة أمورها يحرصون عليه . ولكن ظله ينقبض إذا كان فى أرض حكامها لا يتذوقون للغة أهلها وأدبهم طعما ، كما حدث للأدب الأندلسى حين فتح الملثمون الأندلس ، وكانوا أقواما من همج البربر لا يكادون يفقهون من أدب الأندلسيين وحضارتهم شيئا . وبعد هذا كله فالأدب الإسلامى سنى المذهب ويأبى أن يزهو ويؤتى أكله فى ظل حكومة شيعية العقيدة .

فأنت ترى أن الأدب المصرى قد نكب فى الزمن الماضى من ناحية

الحال السياسية نكبة شديدة ، نكبة أثرت فى قدره ومقداره معا وصرفت عنه أقلام المؤرخين إلى الأدب المشرقى الفخم والأندلسى العذب . وليس ذلك بعجيب . إنما العجيب أن نمضى نحن المحدثين على سنه آبائنا ونعتقد اعتقادهم فى أدبنا القديم . ثم لا نقف عند هذا الحد ، بل نبسط سلطان اعتقادهم على أدبنا الحديث مع أنه مما نباهى به غيرنا إن فاتتنا المباهاة بأدبنا القديم .

وبعد فإنا بناة قومية والواجب يقضى علينا بأن نجمع شمل أدبنا المشتت وندرسه

فهل يجيب رجال الأدب فى مصر دعوة الواجب كما أجابها من قبلهم رجال التاريخ ؟

البعث ...[1]

نغتبط أشد الاغتباط بمظاهر الحياة التى دب دبيبها وسرى تيارها فى العالم فى العالم المنصرم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فكل قطر إسلامى قد هب بعد طول الرقاد ، وصحا بعد نوم مستغرق عميق . فأهل أندونيسيا الذين لا تعلم جمهرة المسلمين عنهم الشىء الكثير قد قاموا بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها يطلبون حقهم الطبيعى فى الوجود وهو الحرية والاستقلال . والهند فى قلق واضطراب طال أمدهما . وإيران وتركيا تعانيان كلب جار قوى وخصم ألد عنيد . والعالم العربى قد نهض يجمع شتاته ويطامن بين أجزائه ويسوى صفوفه استعدادا لارتجاع مجد داثر وعز قديم . وفلسطين قد اعتدل فيها ميزان الأمور وأخذت كفة العرب فى الرجحان بعد أن مالت بها كفة الصهيونية أو كادت تميل . والمغرب قد أخذ يرسل الصيحة تلو الصيحة مناشدا أعضاء الجامعة العربية ألا يسقطوه من عدادهم وأن يبسطوا عليه جناح محبة وعاطفة حنان . والسودان فى حركة تؤذن بانبعاث الحياة فى جثمانه .

* * *

هى حياة إن شئت فشبهها بالنار الكامنة فى الحجر الصلد ، فلما اقتدحها زناد الأحداث إذ هى قد تطاير شررها وتوشك أن يكون لها لهيب وضرام . وإن شئت فشبهها بالحيوية المستكنة فى الحبة أو النواة فما هى إلا أن توافرت لها أسباب النمو فإذا هى شجرة باسقة مورقة فينانة توشك أن تخرج أنضر الزهر وتحمل

(١) الثقافة فى ١١ ديسمبر ١٩٤٥ .

أطيب الثمار . أو بالبخار المنبث فى الهواء لا تحسه العين ولكنه متى تهيأت له أسباب التكاثف والانعقاد إذا هو رذاذ متساقط إلى الأرض يوشك أن يكون مطراً هطالا تسيل منه الأودية والقيعان وتخضر الوهاد والنجاد .

وأى شيء ذلك الذى اقتدح هذه النار الكامنة واستنبت تلك الحبة الهامدة وعقد ذلك البخار المبثوث ؟ إن شئت فقل هو تحكم شراذم من الهولنديين فى ملايين من الأندونيسيين ، وإصرار الإنجليز على التمسك بالهند وجرهم بأن الهند ألمع درة فى تاج دولتهم المترامية الأطراف ، وشدة وطأة الروس على إيران وتركيا فى غير تحرج ولا استحياء ، وخطر الصهيونية الذى جعل من فلسطين القطب الذى تدور عليه رحى الجامعة العربية ، وإغراق المستعمرين من الفرنسيين ومن إليهم من الأسبان والطليان فى إذلال المغاربة وإماتة ما فيهم من شعور بالعزة والكرامة والاستقلال .

على أن ذلك كله ما كان ليؤثر أثره لو لم يكن فى المسلمين ذماء من روح وأثارة من يقين وبقية من صدق الإيمان . الحق أن المسلم ، مهما قست عليه الحوادث وتحيفه صرف الزمان ، قوى الشعور بكرامته، شديد الاعتزاز بعقيدته ولغته وتراثه وماضيه الضخم ، خلال تنزع إلى أعراق قديمة قدم التاريخ ، بل لعلها أقدم من التاريخ .

* * *

فى القرآن الكريم آيات وقصص كثيرة تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يحيي الموتى ، فهو جل اسمه حاشر الخلق أجمعين يوم القيامة ومحاسبهم على ما كسبوا وما اكتسبوا ، وعارضهم على الجنة والنار كل بحسب استحقاقه وما قدمت يداه . وهو سبحانه قد يميت من عباده من يشاء موتا مؤقتا ثم يبعثه

ليكون لنفسه ولغيره من الناس آية وعبرة . من ذلك إماتته عزيرا ثم بعثه إياه بعد مائة عام . وقد يلقى الله النوم على جماعة بعينها مئين من السنين ثم يبعثها إيماء منه إلى أن لكل رجال زمانا لا ينبغي أن يسبقوه أو يتخلفوا عنه ، وهو يورد مثلا لذلك قصة أهل الكهف والرقيم . وقد يحيي سبحانه حيوانا بعد إماتته إحياء معجلا سريعا ، إشارة منه إلى حكمة بالغة ، من ذلك إحياؤه الطيور الأربعة التى أمر إبراهيم الخليل أن يذبحها ويقطع أو صالها ويجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوها ، فلما فعل أتت إليه الطيور سراعا مشيا وطيرانا . قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً ، وأعلم أن الله عزيز حكيم » ويقول المفسرون إن هذه الطيور الأربعة كانت طاووسا وديكا وغرابا وحمامة . ويقولون إن فى القصة إيماء لطيفا إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يأتى بإماتة الشهوات والزخارف التى هى صفة الطاووس ، والصولة المشهور بها الديك ، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب ، وقلة الرغبة فى الترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام .

ترى هل أمات الله الأمم الإسلامية أو ألقى عليها نوما ثقيلا حقبة من الدهر ثم تأذن بحياتها عندما غيرت ما بأنفسها من صفات الشر وأنشأت تتحلى بصفات الخير ؟

أكبر ما نأمل أن يكون الأمر كذلك ، فيكون ما نشاهد فى أنحاء العالم الإسلامى من مظاهر الحياة بداية لمستقبل مجيد تنعم به الأمم الإسلامية وتستفيد منه الإنسانية جمعاء .

كشاف

فهرست الصور

فهرست الموضوعات

تصويب

ص	س	خطأ	صواب
١٠٧	٣	أبو	أبوا
١١٤	١٣	المسمين	المسلمين
١١٥	١٣	ووضعو	ووضعوا
١١٧	آخر سطر	وأودعتها	واودعنها
١١٨	١١	قاستأذنا	فاستأذنا
١١٩	٤ ، ٦	ذى	ذا
١١٩	٨	عرى	غرى
١٣٢	٢	ذهنة	ذهنه
١٥٢	١٥	سنما	سنمار



PUBLICATIONS DU GROUPE D'HISTOIRE FACULTÉ DES LETTRES. UNIVERSITÉ FAROUK Ier

FIGURES

D'HISTOIRE MUSULMANE

(EMPIRE ARABE)

ABDEL HAMID ABBADI BEY

Doyen de la Faculté des Lettres

Professeur d'Histoire Musulmane

Librairie et Imprimerie de Lettres. - 22, Rue Moharram Bey

ALEXANDRIE 1948

Prix P.T. 25